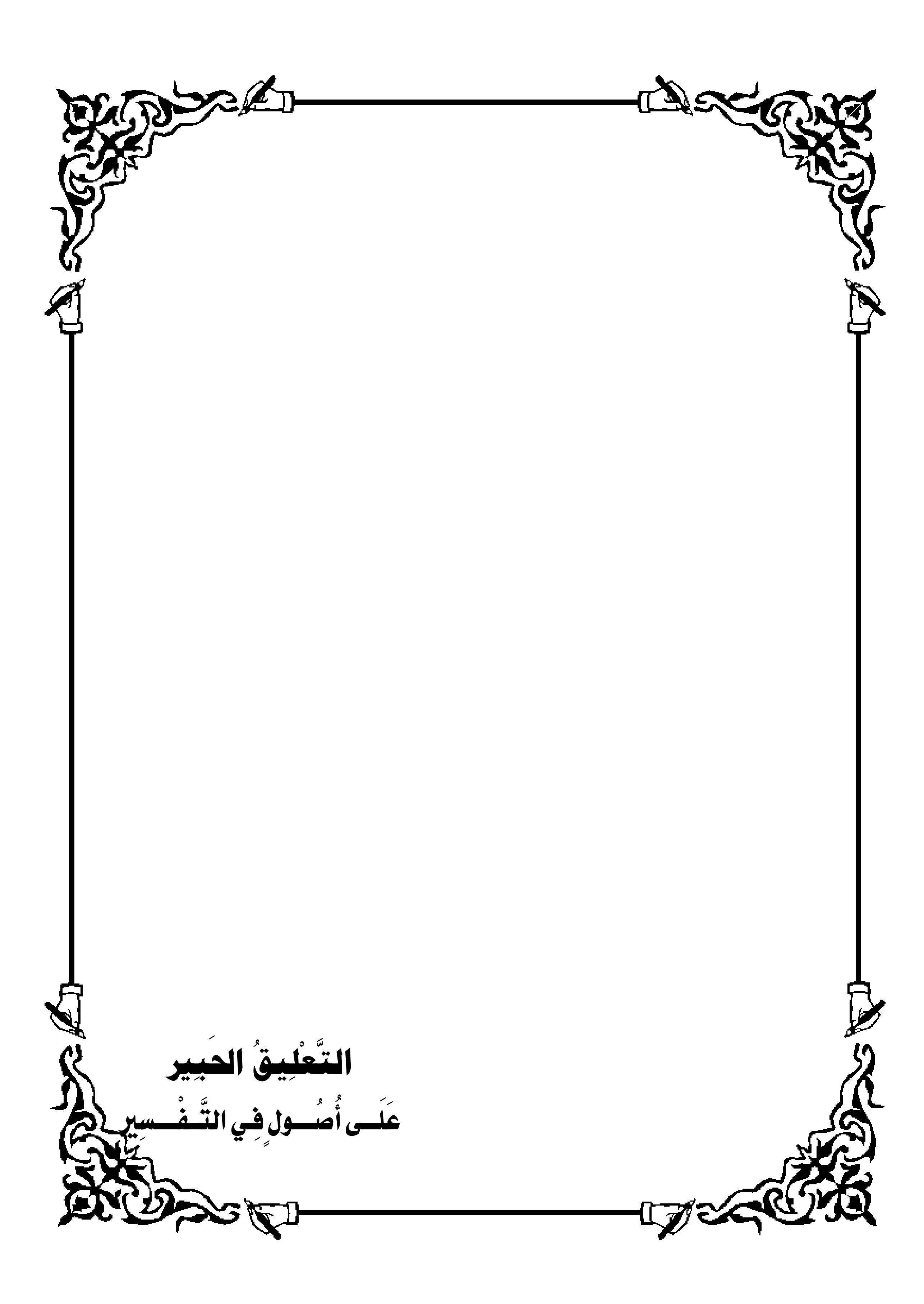


التَّعْلِيقُ الحَبِير

عَلَـى أُصُـولٍ فِي التَّـفْـسِيرِ



الطَّبعة الثانية

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

مكتبة العلوم السلفية

اليمن – إب – أبلان – جوار مركز الفاروق.

ت: ٧٧٧٤٢٧٢٥٨-٧٧٢٦٤٩٢٤٧

٠٤٨٤٩٠٥٥

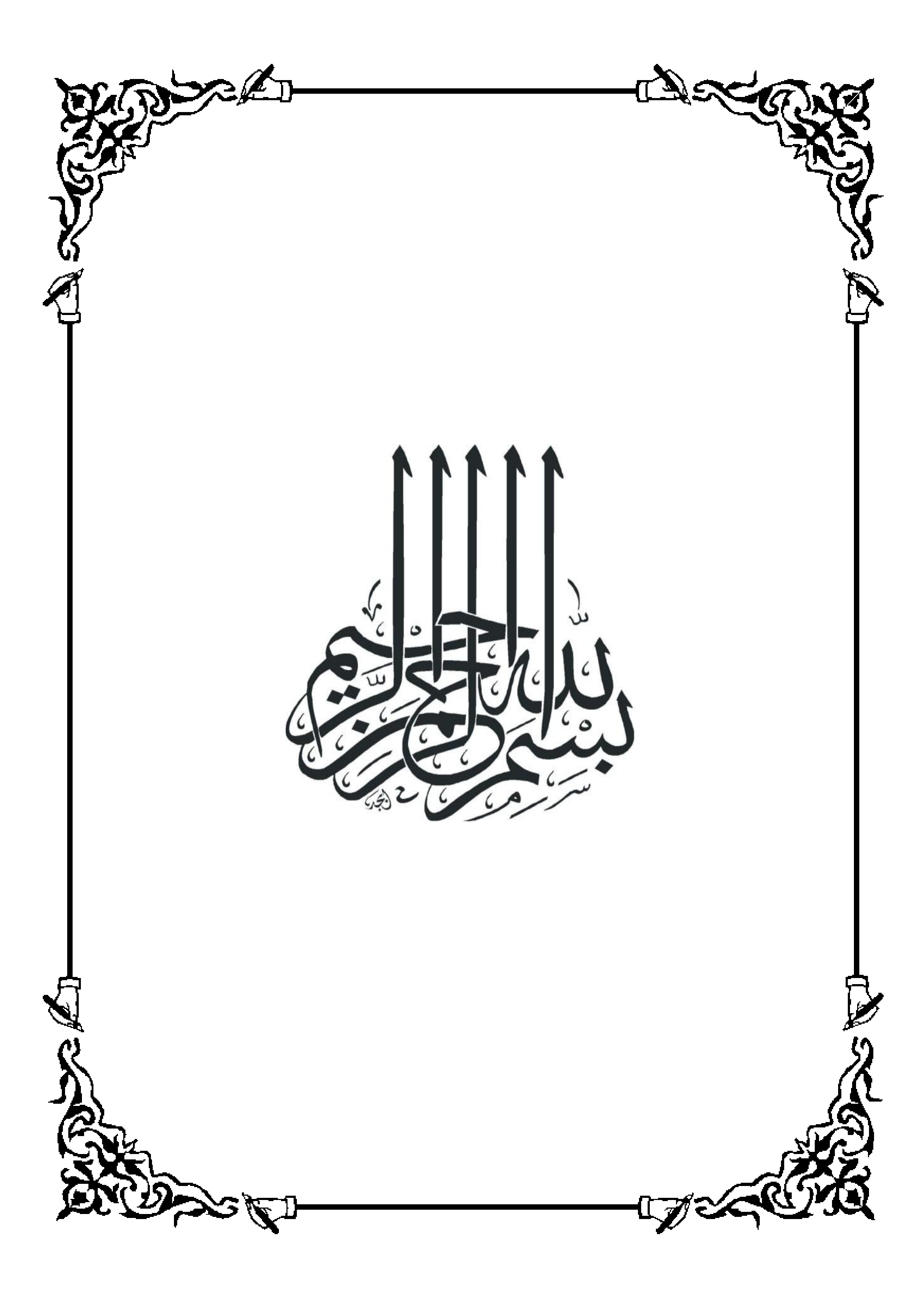


عَلَى أُصُولٍ فِي التَّفْسِير

تَعْلِيقُ وَتَحْقِيقُ

أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ

مُعَاذِ بنِ أَحْمَدَ بنِ فُؤَادِ بنِ حَسَنِ الزَّعِيمِ


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ)

الحمد لله ربِّ العالمين، وأصلِّي وأُسلِّمُ على عبده ورسوله محمدٍ الهادي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فدونَك أخي طالب العلم وفَّقك الله الطبعة الثانية لهذا التعليق على الرسالة القيمة (أصول في التفسير) لمؤلِّفها العلامة محمد بن صالح العثيمين ﵀، والَّتي تُعتبر من أحسن الرسائل المختصرة التي أُلِّفت في هذا الباب.

وقد نفدت الطبعة الأولى على ما فيها من سقوط وأخطاء، وقمت بالإصلاح والتعديل في هذه الطبعة قدر المُستطاع، وقابلتُ أصل الرسالة على طبعة دار ابن الجوزي والتي طُبعت بإشراف مؤسسة الشيخ العثيمين ﵀، فالاعتماد على هذه الطبعة الثانية.

هذا؛ وإِنِّي أسأل الله تعالى أن يجزي أخانا الفاضل رضوان بن بطحان خيراً على تعاونه في طبع عديدٍ من مؤلفاتي، ومنها هذا الكتاب، وأن ينفع به وبمكتبته طلاب العلم خصوصاً والمسلمين عموماً. أسأل الله أن يجعل أعمالنا كلَّها خالصةً لوجهه الكريم، ولا يجعل منها نصيباً لأحدٍ من خلقه، وأن يرزقنا الصدق في القول والعمل، وأن ينفع بهذا الكتاب المسلمين، إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

كتبه

أبو عبد الرحمن معاذ بن أحمد بن فؤاد الزعيم

اليمن – إب – مركز الإمام الوادعي بـ(ماتر)

السبت ١٤/ محرم/ ١٤٣٨هـ

كَلِمَةُ شُكْرٍ

أحمد الله تعالى وأشكره كثيراً على سائرِ نِعَمِه الوفيرة، وعلى ما امتن به عليَّ من العلم النافع والعمل الصالح، وعلى ما شرح به صدري لهذا الخير العظيم، وجعل راحتي وطمئنينيتي وسعة رزقي في العلم، فالعلم عندي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، لله الحمد أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً، وكلّ ما يحصل من غيره من التعاون فهو بفضل الله وحده، ليس لأحدٍ فضلٌ سواه.

وإن كان هناك من شكرٍ؛ عملاً بقوله تعالى ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠]، وبقول رسول الله ﷺ «مَن صَنَعَ إِلَيكُمْ مَعرُوفَاً فَكَافِئوهُ، فِإنْ لَمَ تَجِدُوا مَا تَكَافِئُوا بِهِ فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَرُوا أَنَّكُم قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» [١]، وبقوله ﷺ «لَا يَشكُرُ اللهَ مَن لَا يَشكُرِ النَّاسَ» [٢]؛ فلمن أعان وشجَّعَ ورغَّبَ ونصحَ في الخير بقولٍ أو بفعلٍ؛ وعلى رأسهم والدي المبارك أحمد بن فؤاد الزعيم–عافاه الله وشفاه، وصرف عني وعنه الشرَّ وأهله–، فله فضلٌ عليَّ كبير لا يُنسى، أسأل الله أن يجزه عني وعن المسلمين خير الجزاء، وأن يصرف عنه أهل الشرّ والفتن، وكذلك أمي المباركة التي لها فضلٌ عليَّ كذلك، فلولا الله، ثم الوالدان لما جئت ولا رحتُ، أسأل الله تعالى أن يثيبهما، وأن يبارك في عمرهما، وأن يرحمهما كما ربياني صغيراً.

---

(١) رواه أبو داود في "السنن" برقم (١٦٢٧)، وغيره، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه أبو داود في "السنن" برقم (٤٨١١)، وأحمد برقم (٧٩٢٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك أشكر كلَّ من كانت له صلة في التعاون معي على الخير، من تعليم وتشجيعٍ ونصحٍ وإرشادٍ، وعلى رأسهم: فضيلة الشيخ العلامة المحدِّث يحيى بن عليٍّ الحجوري –حفظه الله وعافاه–، فهو الأب المُعلِّم، والمربِّي المؤدِّب، سقاني بفضل الله علوماً منذ نعومة أظفاري، فلا أدري كيف أجازيه، إلا أنني أدعو الله له كثيراً، وأسأل الله تعالى أن يمنَّ عليه بالصحة والعافية، ويردّه إلينا سالماً، وأن ينفع به الأمة، كما نسأله جلَّ وعلا أن يصرف عنَّا وعنه أهل الشرّ والفساد، وأهل الحقد والعناد، وأن ينصف لنا وله، إنه على كلِّ شيءٍ قدير.

وأشكر جميعَ من تعاون معي بنصحٍ أو توجيهٍ أو إرشادٍ من مشايخ وطلبة علمٍ، وآباء، وزملاء، شكر الله لهم جميعاً.

ولا أنسى أن أتقدَّم بالشكر الجزيل للأخوين الفاضلين الكريمين المُكْرميْن أبي لقمان وجبريل صاحبي (دار الإسناد – صنعاء) على تفضلهما لطبع عديدٍ من كتبي، ففضلهما عليَّ بعد الله تعالى كبير في ذلك، أسأل الله أن يبارك فيهما، وأن يحفظهما من كلِّ سوءٍ ومكروهٍ، ويثبتنا وإياهما على الإسلام حتى الممات.

كما لا أنسى كَرَمَ أخي وعزيزي المُكرم رضوان بطحان صاحب (مكتبة العلوم السلفية – إب)، في تفضُّلِه لطبع هذه الرسالة، شكر الله له كثيراً، وبارك الله فيه، وفي مكتبته، ووالله أنَّ ما من شخصٍ ترى داره أو مكتبته تعتني بكتب أهل السنة؛ إلا وترى التوفيقَ حليفها إن أخلص صاحبها، وهذا هو الظن بإخواننا المذكورين، نسأل الله أن يثيبهم على ذلك، وأن ينفع بهم وبمكتباتهم.

وختاماً شكر الله لجميع إخواني وأخواتي الأشقاء على تعاونهم وتشجيعهم، كما أشكر –أيضاً– زوجتي المباركة أم عبد الرحمن بنت علي بن لطف العامري على تعاونها معي على طلب العلم، وإقبالها عليه، وحبّها له، نسأل الله أن يوفق الجميع لِكلِّ خيرٍ، وأن يصرف عنَّا وعنهم كلَّ سوءٍ وضيْر، والحمد لله.

❊ ❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(مُقَدِّمَةُ المُحَقِّق)

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله العالمين، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله المبعوث رحمةً للعالمين، صلَّى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته الغرّ الميامين، الذين نصر الله بهم الدِّين، وأيَّد بهم رسوله الأمين، وأعزَّ بهم الإسلام والمسلمين، وأغاظ بهم الكفار والمنافقين، رضوان الله عليهم أجمعين، وسلَّم تسليماً مزيداً إلى يوم الدِّين.

أما بعد:

فهذا تحقيقٌ وتعليقٌ على هذه الرسالة المفيدة لإمام في العقيدة والتوحيد والفقه والتفسير العلامة محمد بن صالح العثيمين ﵀، والتي عنوانها (أصول في التفسير)، والتي جعل الله تعالى فيها بركةً عظيمةً، ونفع بها نفعاً كبيراً، وقلَّ أن تجد مركزَ علمٍ أو جامعةً إسلاميةً إلا وتقرِّر هذا الكتاب ضمن المنهج الدراسي، وكان يُدرَّس في مركزنا (دار الحديث) بدماج، أعاده الله، وقد كان من فضل الله علينا أن قمنا بتدريسه مراراً، ويسَّر الله لي شرحه في جزءٍ بعنوان (الكنز الثمين في شرح أصول في التفسير للعلامة العثيمين)، وبعد خروجنا من دمَّاج يسَّر الله لي تدريسه مراراً في (دار الحديث) بمسجد الفتح، صنعاء –حماه الله-، ورأيت تعجيلاً للفائدة أن أخرج الكتاب وعليه تحقيقٌ وتعليقٌ حتى ييسِّر الله تعالى خروج الشرح الواسع، فاختصرتُ

شرحي السابق، واكتفيت بالتحقيق والتعليق، وحرصتُ أن يخرج الكتاب مخدوماً كي ينتفع به المسلمون، وعسى الله عزَّ وجل أن ينفع بهذا التعليق كما نفع بأصل هذه الرسالة، إنه على كلِّ شيءٍ قدير، ولا حول ولا قوة إلا به، والحمد لله ربِّ العالمين.

وبعد:

فكثيرٌ من إخواني طلاب العلم –حفظهم الله تعالى–، يسأل عن الكتب التي تُدرس في هذا الفن؛ فأقول:

الكتب التي تُدرس في هذا الفن، هي:

١- (أصول في التفسير) للعلامة العثيمين ﷺ، مع شرح المصنف، وشرحنا عليه (الكنز الثمين).

٢ – (مقدمة في أصول التفسير) لشيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ، وله عدّة شروح، من أحسنها شرح العلامة العثيمين، وشيخنا يحيى الحجوري، والعلامة صالح آل الشيخ، والدكتور مساعد الطيار.

٣ – (فصول في أصول التفسير) لمؤلفه: مساعد الطيار.

٤ – (الهداية إلى معرفة طرق التفسير بالاجتهاد والرواية) لمؤلفه: معاذ الزَّعيم.

٥- (إتحاف ذوي الفضل والإيمان ببيان ما يتعلق بنزول القرآن) لمؤلفه معاذ الزعيم.

٦ – (روضات جنات النعيم في شرح رسالة الإمام الألباني كيف يجب علينا أن نفسِّر القرآن الكريم) لمؤلفه معاذ الزعيم.

٧ – (منظومة الزمزمي) لعبد العزيز الزمزمي رحمه الله.

مع مطالعة الكتب الآتية:

١ – (الرسالة) للإمام الشافعي رحمه الله.

٢ – (البرهان في علوم القرآن) للعلامة الزركشي رحمه الله.

٣ – (الإتقان في علوم القرآن) للعلامة السيوطي رحمه الله.

٤ – (مناهل العرفان) للزرقاني رحمه الله.

٥ – (التفسير والمفسرون) للدكتور الذهبي رحمه الله.

٦ – (إفادة القارئ المبتدي بتلخيص البرهان للزركشي) لشيخنا الحجوري – حفظه الله.

٧ – (قلائد الجوهر والتيجان في علوم القرآن) للشيخ أبي عمرو الحجوري – حفظه الله.

٨ – (أسباب الخطأ في التفسير) لمؤلفه: محمود طاهر.

٩ – (المحرر في علوم القرآن) لمؤلفه: مساعد الطيار [1].

---

(١) مساعد الطيار قويٌّ في هذا الفنِّ، وهو فنُّه، لهذا فإنَّ كتبه من أحسن الكتب في هذا الفن، وهو يُعتبر فارس هذا الميدان في هذا العصر حسب اطلاعي، لا أعلم من كتب بإتقان في هذا العصر في هذا الفن مثله، جزاه الله خيراً.

وغيرها من الكتب النافعة في هذا الباب، أسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياكم بالعلم النافع، والعمل الصالح، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

معاذ بن أحمد بن فؤاد الزَّعيم

اليمن –إب– حُبَيش

❊ ❊ ❊ ❊

(تَرْجَمَةٌ مُخْتَصَرَةٌ لِلإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيمِينَ رحمه الله)

اسمه وكنيته:

هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن العثيمين الوهيبي التميمي.

مولده:

ولد ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ، في مدينة عنيزة – إحدى مدن القصيم– بالمملكة العربية السعودية.

طلبه للعلم:

تعلم القران الكريم على جده من جهة أمه عبد الرحمن بن سليمان الدامغ رحمه الله، ثم تعلم الكتابة وشيئاً من الأدب والحساب، والتحق بإحدى المدارس، وحفظ القرآن عن ظهر قلب في سن مبكر، وكذا مختصرات المتون في الحديث والفقه، فلم يتجاوز سن الخامسة عشر حتى حفظ القرآن و"زاد المستقنع" في الفقه، و"ألفية ابن مالك" في النحو.

وكان الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله قد رتّب من طلبته الكبار لتدريس المبتدئين من الطلبة، وكان منهم الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع رحمه الله فانضم إليه الشيخ العثيمين رحمه الله.

ولما تحصّل على خير كثير من العلم في التوحيد والفقه والنحو جلس في حلقة شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله؛ فدرس عليه في التفسير والحديث والتوحيد والفقه وأصوله والفرائض والنحو.

ويعتبر الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله شيخه الأول الذي نهل من معين علمه، وتأثّر بمنهجه وتأصيله واتّباعه للدليل وطريقة تدريسه، وقد توسم فيه شيخه النجابة والذكاء وسرعة التحصيل فكان به حفياً، ودفعه إلى التدريس وهو لا يزال طالباً في حلقته.

قرأ على الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان رحمه الله في علم الفرائض حال ولايته القضاء في عنيزة.

وقرأ على الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله في النحو والبلاغة أثناء وجوده في عنيزة.

ولما فُتح المعهد العلمي بالرياض أشار عليه بعض إخوانه أن يلتحق به، فاستأذن شيخه عبد الرحمن السعدي فأذن له؛ فالتحق بالمعهد العلمي في الرياض سنة ١٣٧٢هـ وانتظم في الدراسة سنتين، انتفع فيهما بالعلماء الذين كانوا يدرسون في المعهد حينذاك، ومنهم العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبد العزيز بن ناصر بن رشيد، والشيخ عبد الرحمن الأفريقي وغيرهم (رحمهم الله).

واتصل بسماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله فقرأ عليه في المسجد من صحيح البخاري، ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتفع منه في علم الحديث والنظر في آراء فقهاء المذاهب والمقارنة بينها، ويعتبر سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز شيخه الثاني في التحصيل والتأثر به.

وتخرج من المعهد العلمي، ثم تابع دراسته الجامعية انتساباً حتى نال الشهادة الجامعية من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض.

دعوته ونشره للعلم:

بدأ التدريس منذ عام ١٣٧٠هـ في الجامع الكبير بعنيزة في عهد شيخه عبد الرحمن السعدي، وبعد أن تخرج من المعهد العلمي في الرياض عُيِّن مدرساً في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٤هـ.

وفي سنه ١٣٧٦هـ توفي شيخه عبد الرحمن السعدي فتولى بعده إمامة المسجد بالجامع الكبير في عنيزة والخطابة فيه والتدريس بمكتبة عنيزة الوطنية التابعة للجامع والتي أسسها شيخه عام ١٣٥٩هـ .

ولما كثر الطلبة وصارت المكتبة لا تكفيهم صار يدرس في المسجد الجامع نفسه، واجتمع إليه طلاب كثيرون من داخل المملكة وخارجها حتى كانوا يبلغون المئات، وهؤلاء يدرسون دراسة تحصيل لا لمجرد الاستماع، - ولم يزل مدرساً في مسجده وإماماً وخطيباً حتى توفي رحمه الله.

استمر مدرساً بالمعهد العلمي في عنيزة حتى عام ١٣٩٨هـ، وشارك في آخر هذه الفترة في عضوية لجنة الخطط ومناهج المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وألف بعض المناهج الدراسية.

ثم لم يزل أستاذاً بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم بكلية الشريعة وأصول الدين منذ العام الدراسي ١٣٩٨-١٣٩٩هـ حتى توفي رحمه الله.

درّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج وشهر رمضان والعطل الصيفية.

شارك في عدة لجان علمية متخصصة عديدة داخل المملكة العربية السعودية.

ألقى محاضرات علمية داخل المملكة وخارجها عن طريق الهاتف.

تولى رئاسة جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة منذ تأسيسها عام ١٤٠٥هـ حتى وفاته رحمه الله.

كان عضواً في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للعامين الدراسيين ١٣٩٨ - ١٣٩٩ هـ و ١٣٩٩ - ١٤٠٠ هـ.

كان عضواً في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين بفرع الجامعة بالقصيم، ورئيساً لقسم العقيدة فيها.

كان عضواً في هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية منذ عام ١٤٠٧هـ حتى وفاته رحمه الله.

وكان بالإضافة إلى أعماله الجليلة والمسؤوليات الكبيرة حريصاً على نفع الناس بالتعليم والفتوى، وقضاء حوائجهم ليلاً ونهاراً، حضراً وسفراً، وفي أيام صحته ومرضه -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-

كما كان يلزم نفسه باللقاءات العلمية والاجتماعية النافعة المنتظمة المجدولة، فكان يعقد اللقاءات المنتظمة الأسبوعية مع قضاة منطقة القصيم، وأعضاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عنيزة، ومع خطباء مدينة عنيزة، ومع كبار طلابه، ومع الطلبة المقيمين في السكن، ومع أعضاء مجلس إدارة جمعية تحفيظ القران الكريم، ومع منسوبي قسم العقيدة بفرع جامعة الإمام بالقصيم.

وقد تركزت جهوده ومجالات نشاطه العلمي رحمه الله فيما يلي:-

باشر التعليم منذ عام ١٣٧٠هـ إلى آخر ليلة من شهر رمضان عام ١٤٢١هـ (أكثر من نصف قرن) رحمه الله رحمة واسعة. فقد كان يدرِّس في مسجده بعنيزه كل يوم.

ويدرِّس في المسجد الحرام والمسجد النبـوي في مواسـم الحـج ورمضـان والعطـل الصيفية.

ويدرِّس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ويدرِّس باستخدام الهاتف داخل المملكة وخارجها عن طريق المراكز الإسلامية.

ويلقي المحاضرات العامة المباشرة والدروس في مساجد المملكة كلما ذهب لزيـارة المناطق.

ويهتم بالجانب الوعظي الذي خصه بنصيب وافر من دروسه للعناية به، وكان دائماً يكرر على الأسماع الآية الكريمة "واعلموا أنكم ملاقوه" ويقول "والله لـو كانـت قلوبنـا حية لكان لهذه الكلمة وقع في نفوسنا".

ويعتني بتوجيه طلبة العلـم، وإرشـادهم، واسـتقطابهم، والصـبر عـلى تعلـيمهم، وتحمل أسئلتهم المتعددة والاهتمام بأمورهم.

ويلقي خطبه مـن مسـجده في عنيـزة، وقـد تميـزت خطبـه ﷺ بتوضـيح أحكـام العبادات والمعاملات ومناسباتها للأحداث والمواسم فجـاءت كلهـا مثمـرة مجديـة محققـة للهدف الشرعي منها.

ويعقد اللقاءات العلمية المنتظمة والمجدولة الأسبوعية منها والشهرية والسنوية.

ويحرر الفتاوى التي كتب الله قبولها عند الناس فاطمأنوا لها ولاختياراته الفقهية.

وينشر عبر وسائل الإعلام من إذاعة، وصـحافة، ومـن خـلال الأشرطـة دروسـه ومحاضراته، وبرامجه العلمية عبر البرنامج الإذاعي المشهور - نورٌ على الدرب - وغيره من البرامج .

وأخيراً توّجت جهوده العلمية وخدمته العظيمة التي قدمها للناس في مؤلفاته العديدة، ذات القيمة العلمية، من كتب ورسائل وشروح للمتون العلمية، طبقت شهرتها الآفاق، وأقبل عليها طلبة العلم في أنحاء العالم، وقد بلغت مؤلفاته أكثر من تسعين كتاباً ورسالة، ثم لا ننسى تلك الكنوز العلمية الثمينة المحفوظة في أشرطة الدروس والمحاضرات فإنها تقدر بآلاف الساعات، فقد بارك الله تعالى في وقت هذا العالم الجليل وعمره، نسأل الله تعالى أن يجعل كل خطوة خطاها في تلك الجهود الخيرة النافعة في ميزان حسناته يوم القيامة.

ملامح من مناقبه وصفاته الشخصية:

كان الشيخ رحمه الله قدوة صالحة، ونموذجاً حياً، فلم يكن علمه مجرد دروس ومحاضرات تلقى على أسماع الطلبة؛ وإنما كان مثالاً يحتذى في علمه، وتواضعه، وحلمه، وزهده، ونبل أخلاقه.

تميز بالحلم والصبر والجَلَد والجدية في طلب العلم وتعليمه، وتنظيم وقته، والحفاظ على كل لحظة من عمره، كان بعيداً عن التكلف، وكان قمة في التواضع والأخلاق الكريمة، والخصال الحميدة، وكان بوجهه البشوش اجتماعياً يخالط الناس ويؤثر فيهم، ويدخل السرور إلى قلوبهم، ترى السعادة تعلو محياه وهو يلقي دروسه ومحاضراته رحمه الله.

كان رحمه الله عطوفاً مع الشباب؛ يستمع إليهم ويناقشهم ويمنحهم الوعظ والتوجيه بالرفق واللين والإقناع .

كان حريصاً على تطبيق السنة في جميع أموره.

ومن ورعه أنه كان كثير التثبت فيما يفتي، ولا يتسرع في الفتوى قبل أن يظهر له الدليل، فكان إذا أشكل عليه أمر من أمور الفتوى يقول: انتظر حتى أتأمل المسألة، وغير ذلك من العبارات التي توحي بورعه وحرصه على التحرير الدقيق للمسائل الفقهية.

لم تفتر عزيمته في سبيل نشر العلم، حتى أنه في رحلته العلاجية إلى الولايات المتحدة الأمريكية قبل ستة أشهر من وفاته نظم العديد من المحاضرات في المراكز الإسلامية، والتقى بجموع المسلمين من الأمريكيين وغيرهم، ووعظهم، وأرشدهم، كما أمهم في صلاة الجمعة.

وكان يحمل هم الأمة الإسلامية وقضاياها في مشارق الأرض ومغاربها، وقد واصل رحمه الله مسيرته التعليمية والدعوية بعد عودته من رحلته العلاجية، فلم تمنعه شدة المرض من الاهتمام بالتوجيه والتدريس في الحرم المكي حتى قبل وفاته بأيام.

أصابه المرض فتلقى قضاء الله بنفس صابرة راضية محتسبة، وقدَّم للناس نموذجاً حياً صالحاً يقتدي به لتعامل المؤمن مع المرض المضني، نسأل الله تعالى أن يكون في هذا رفعة لمنزلته عند رب العالمين.

كان رحمه الله يستمع إلى شكاوى الناس ويقضي حاجاتهم قدر استطاعته، وقد خصص لهذا العمل الخيري وقتاً محدداً في كل يوم لاستقبال هذه الأمور.

وفاته رحمه الله:

رزئت الأمة الإسلامية جميعها قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ بإعلان وفاة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين بمدينة جدة بالمملكة العربية السعودية، وأحس بوقع المصيبة كل بيت في كل مدينة وقرية، وصار الناس يتبادلون التعازي في المساجد والأسواق والمجمعات، وكل فرد يحس وكأن المصيبة مصيبته

وحده، ورفعت البرقيات لتعزية خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بـن عبـد العزيـز رحمه الله وصاحب السمو الملكي ولي العهد، وصاحب السمو الملكي النائب الثـاني لـرئيس مجلـس الوزراء بفقيد البلاد وفقيد المسلمين جميعاً، وأخذ البعض يتأمـل ويتسـاءل عـن سر هـذه العظمة والمكانة الكبيرة والمحبة العظيمة التي امتلكها ذلك الشيخ الجليل في قلوب الناس، رجالاً ونساء صغاراً وكباراً؟ امتلأت أعمدة الصـحف والمجـلات في الـداخل والخـارج شعراً ونثراً تعبر عن الأسى والحزن على فـراق ذلـك العـالم الجليـل فقيـد الـبلاد والأمـة الإسلامية، رحمه الله.

وصَلَّى على الشيخ في المسجد الحرام بعد صلاة العصر يوم الخميس السـادس عشرـ من شهر شوال سنة ١٤٢١هـ الآلاف المؤلفة، وشيَّعتْه إلى المقبرة في مشاهد عظيمة لا تكاد توصف، ثم صلى عليه من الغد بعد صلاة الجمعة صلاة الغائب في جميع مدن المملكة، وفي خارج المملكة جموع أخرى لا يحصيها إلا باريها، ودفن بمكة المكرمة رحمه الله رحمة واسعة .

وخلّف رحمه الله خمسة من البنين، هم عبد الله وعبد الرحمن وإبراهيم وعبد العزيز وعبد الرحيم، جعل الله فيهم الخير والبركة والخلف الصالح [1].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) هذه الترجمة مأخوذة من موقع الشيخ رحمه الله، مع التصرف فيها، ولمزيد النظر في سيرة هذا الإمام يُراجع كتاب "الدرّ الثمين في ترجمة فقيه الأمة العلامة العثيمين" لعصام عبد المنعم المري.

(المُقَدِّمَة)

بسم الله الرحمن الرحيم [١]

(١) ابتدأ المؤلف كتابه بالبسملة لأمور:

الأمر الأول: الاستعانة بالله جل وعلا.

الأمر الثاني: اتفاق الأمة على كَتْبها في أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل.

واختلفوا في كتابتها في بداية الشعر: والصحيح استحباب كتابتها، خلافاً لِمَا نُقِلَ عنِ الشعبي والزهري، كما بينَّا ذلك في الشرح.

وانظر "الجامع لأحكام القرآن"(١/ ١٣٣)، "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" (ص:١٦٣-١٦٤) برقم (٥٤٣) و(٥٤٤) و(٥٤٥) و(٥٤٦). و"الدر المنثور" للسيوطي (١/ ٣١) و"العمدة في محاسن الشعر وآدابه" لأبي علي الحسن بن رشيق الأزدي.

الأمر الثالث: اقتداءً بالكتاب المبارك، حيث ابتُدئ القرآن بالبسملة، على الخلاف المشهور هل هي آية من سورة الفاتحة أم لا؟.

وهي توقيفية من حيث قراءتها لا أنها أول ما نزل من القرآن. راجع "تفسير ابن كثير" في مقدمته و"فتح القدير" للشوكاني (١/ ٧٨) و"الجامع" للقرطبي (١/ ١٢٨-١٣٢).

الأمر الرابع: اقتداءً بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، قال تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ سلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسمِ اللهَّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسلِمِينَ﴾ [النمل:٣٠-٣١].

وهكذا نبينا محمد ﷺ ابتدأ رسائله بالاستعانة بالله جل وعلا، كما في صحيح البخاري برقم (٤٥٥٣) ومسلم برقم (١٧٧٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما الحديث الطويل في قصة هرقل ورسالة النبي ﷺ إليه، وفيه: ثمَّ دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: «بِسْمِ اللهَّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهَّ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ؛ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ...».

وفي صحيح مسلم برقم (١٧٨٤)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن قريشاً صالحوا النبي ﷺ فيهم: سهيل بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه «اكْتُبْ؛ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ...». وجاء في البخاري برقم (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) عن المسور بن مخرمة ومروان.

=

الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمـداً عبـده ورسـوله -صـلى الله عليـه وعـلى آلـه وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وسلَّم تسليماً، أما بعد (١):

=

وهذه الأدلة تغني عن حديث (كل أمرٍ ذي بال لا يُبدأُ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع) فإنه لم يثبت كما خرَّجناه وحقَّقناه في شرحنا لهذه الرسالة. وانظر "المقاصد الحسنة" للسخاوي"(٣٢٧) "علل الدارقطني"(٨/ ٢٩-٣٠) "فتح الباري"(٨/ ٦٧-٦٨).

الأمر الخامس: ندْبُ الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعلٍ، كالأكل والشرب، والنحر، والجماع، والطهارة، وركوب البحر، والكتابة، إلى غير ذلك من الأفعال.

* مسألة: هل تُذكر البسملة على الفعل المحرم والمكروه؟

الخلاصة: أن ذكرها على الفعل المحرم محرَّمٌ، وعلى الفعل المكروه مكروهٌ. انظر "معجم المناهي اللفظية"(ص:١٧٩) و"إعانة المستفيد شرح كتاب التوحيد"(١/ ١٧).

(١) هذه تُسمَّى خطبة الحاجة، وقد رويت فيها أحاديث عن النبي ﷺ، ففي صحيح مسلم برقم (٨٦٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة إسلام ضماد الأزدي، وفيه: قال رسول الله – ﷺ «إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِىَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ:» الحديث.

وفي سنن أبي داود برقم (٢١١٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: علَّمنا رسول الله ﷺ خطبة الحاجة: «إِنَّ الحَمْدَ لله، نَسْتَعِينَهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» وذكر فيه الآيات الثلاث في التقوى، في سورة [آل عمران:١٠٢] و[النساء:١] و[الأحزاب:٧٠-٧١]، وهذا حديث صحيح.

=

فإن من المهم في كل فنٍ [1] أن يتعلم المرء من أصـوله مـا يكـون عونـاً عـلى فهمـه، وتخريجه على تلك الأصول، ليكون علمه مبنياً على أسسٍ قوية، ودعائم راسخة.

وقد قيل: "من حُرم الأصول حُرم الوصول" [2].

وفي صحيح مسلم برقم (٨٦٧)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وفيه: قال رسول الله ﷺ «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ».

وفي لفظ له: كان رسول الله ﷺ يخطب الناس: يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله، ثم يقول « مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَخَيْرُ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ» الحديث.

قول المؤلف رحمه الله (ونتوب إليه):

هذه الزيادة منه إنما زادها تأسياً بالعلماء السابقين، كما ذكر ذلك رحمه الله في "شرح أصول في التفسير"(ص:١١٩)، لا أنها ثابتة بالدليل الشرعي.

(١) الفن: واحد "فنون" أي: الأنواع، يعني: أنواع العلوم الشرعية، وأنواع العلوم الشرعية هي: علم التفسير، علم الحديث وشروحه، علم الفقه، علم التوحيد والعقيدة، ولهذه الأنواع المباركة أصول موصلة لفهمها؛ كأصول الفقه، وأصول التفسير، وقواعدهما، وعلوم اللغة كالنحو، والبلاغة، والصرف، والإملاء، وعلوم مصطلح الحديث ورجاله، وغيرها من علوم الآلة الموصلة لعلوم الغاية.

(٢) هذه القاعدة تشمل أربعة أمورٍ:

الأمر الأول: من حُرم العلوم الشرعية عموماً حُرم الوصول للعبادة وأدائها كما هي.

الأمر الثاني: من حُرِمَ أعظم أمور الدين وهو التوحيد الخالص والعقيدة الصحيحة حُرِمَ الوصول إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

الأمر الثالث: من حُرم علوم الآلة حُرم الوصول إلى فهم علوم الغاية، وعلوم الآلة هي الموصلة لفهم علوم الغاية، كما سبقت الإشارة إليها.

ومن أجلِّ فنون العلم، بل هو أجلّها وأشرفها: علم التفسير الذي هو: تبيين معاني كلام الله عز وجل [(١)]، وقد وضع أهل العلم له أصولاً كما وضعوا لعلم الحديث أصولاً، ولعلم الفقه أصولاً [(٢)].

= الأمر الرابع: من حُرم التدرّج في الطلب وأخْذ بدائيات العلوم وصغارها حُرم الوصول لإتقان كبار العلوم وفهمها.

وتوسعنا في ذكر هذه الأمور في الشرح.

(١) علمُ التفسير هو أجلُّ العلوم وأشرفها، وهذا باتفاق أهل العلم، نقله السيوطي رحمه الله في "الإتقان في علوم القرآن"(٢/ ٤٩٥).

وللأصبهاني رحمه الله كلامٌ جميل في بيان شرف هذا العلم العظيم، كما في "الإتقان" للسيوطي (٢/ ٤٩٦)، ذكرناه في الشرح.

قوله (وهو تبين معاني كلام الله): سيأتي الكلام على التفسير وتعريفه وما يتعلق به في بابه إن شاء الله.

(٢) نعم؛ هو أجلُّ العلوم وأشرفها، وضع أهل العلم للتفسير أصولاً وقواعد يتوصل بها لفهمه.

والناظر إلى القرآن الكريم يرى فيه أصولاً وقواعد، على المسلم تعلمها وفهمها والعمل بها، مثال ذلك: قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

هؤلاء الآيات المباركات نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في غار حراء، نستنبط من نزولها جملة من أنواع أصول التفسير، منها:

١- النزول، خصوصاً أول ما نزل. ٢- القراءة. ٣- الوحي. ٤- معرفة المكي والمدني.

وهكذا نستنبط من الآيات القواعد والأصول الموصلة لفهم ومعرفة التفسير، فنشأة علم أصول التفسير بدأت مع نزول القرآن.

وهل كان هذا العلم موجوداً في الصحابة رضي الله عنهم؟ =

=
الجواب: نعم كان موجوداً، لكن ليس على الطريقة المعروفة والتقسيم الذي قسمه أهل العلم في كتبهم.
فالصحابة ﭫ كانوا يفسرون القرآن ويبينون الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمكي والمدني، وغير ذلك.
وأما تدوين هذا العلم "أصول التفسير" على الطريقة المعروفة لدينا:
فأول من بدأ بالتدوين في الأصول على هذه الطريقة المعروفة لدينا هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي ﭬ في كتابه "الرسالة".
هذا أول كتاب صنِّف في أصول الفقه، وهو شامل لأصول التفسير لثلاثة أمورٍ:
الأمر الأول: أن المراد بالفقه هنا جميع العلوم الشرعية، كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١٢٢]، والتفقه في الدّين شامل لجميع فنون الشريعة، فيشمل التفسير والحديث والفقه والتوحيد والعقيدة.
الأمر الثاني: أن من العلماء من أنكر تسمية علم أصول الفقه بهذا الاسم، قال بعضهم: لا يصح أن يُسمى هذا العلم "أصول الفقه" خاصاً بهذا الموضع ومقيداً به؛ لأنه شامل للتفسير ولغيره من علوم الشَّرع، فيُقال "الأصول" أو "أصول جامعة" ونحو ذلك، ولا يقيد بشيء من العلوم؛ لأنها عامة شاملة.
الأمر الثالث: من خلال معرفة سبب تأليف الشافعي ﭬ للرسالة نعلمُ أنَّ أصل تأليفه ليجمع أصولاً متعلِّقةً بالتفسير.
وقد نصّ الأئمة على أن "الرسالة" للإمام الشافعي ﭬ أول كتاب صُنِّف في الأصول على هذه الطريقة، منهم: النووي والزركشي والرازي والأسنوي والدهلوي وغيرهم.
وكان سبب تأليف هذا الكتاب: أن الإمام عبد الرحمن بن مهدي ﭬ كتب إلى الشافعي وهو شابٌّ أن يضع كتاباً فيه معاني القرآن، ويجمع قبول الأخبار فيه، وحجية الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنّة، فوضع له كتاب "الرسالة".
انظر "معرفة علوم الحديث" للحاكم (ص:٢٢٩) "تاريخ بغداد"(٢/ ٥٧) "آداب الشافعي ومناقبه"(ص:٥٧) "تهذيب الأسماء واللغات" للنووي (١/ ٤٧) "المجموع"(١/ ٨) "البحر =

وقد كنتُ كتبتُ من هذا العلم ما تيسّر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، فطلب مني بعض الناس أن أفردها في رسالة؛ ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبته إلى ذلك (١)، وأسأل الله تعالى أن ينفع بها (٢).

= المحيط" للزركشي (١/ ١٠) "طبقات الشافعية" للأسنوي (١/ ١٩) "شرح مقدمة التفسير للنجدي" شرح الشيخ الشثري (ص:١٠-١١) "المحرر في علوم القرآن"(ص:٢٩-٣٦).

(١) هذا هو سببُ تأليف الشيخ رحمه الله لهذه الرسالة المفيدة النافعة، وقد صنّف في هذا العلم النافع المفيد جمعٌ من الأئمة والعلماء، كما أشرنا إلى بعضهم في المقدمة.

وهناك كتب ورسائل مفردة في مواضيع خاصة ككتب الناسخ والمنسوخ، وكتب أسباب النزول، وكتب معرفة المحكم والمتشابه، وكتب الوجوه والنظائر، وكتب إعراب القرآن، وكتب القراءات، ونحوها.

(٢) وقد فعل سبحانه وتعالى، ونفع بها نفعاً عظيماً، وذلك لأمور:

١- لصدق مؤلفها وإخلاصه ومكنته العلمية، نحسبه والله حسيبه.

٢- لأنها رسالة علمية دينية مبنية على الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٣- للمادة العلمية النافعة فيها، التي تنصر هذا الدّين وتنشره وتبلغه الناس.

٤- لسهولتها ويسرها، وعدم المشقة والكلفة التي يأبها الله سبحانه وتعالى.

٥- لعلم الله سبحانه وتعالى أنها رسالة تصلح للنشر والانتفاع بها، لا سيما للمبتدئ، والله تعالى أعلم.

ومن هنا نستفيد ما يلي:

١- إذا أردنا أن ينفع الله بعلمنا أن نجد ونجتهد في طلبه.

٢- أن نصدق مع الله في طلب العلم ونشره، وتكون نيتنا نفع أنفسنا والمسلمين، وتبليغ هذا الدين العظيم، والإخلاص في ذلك.

٣- أن تكون المادة العلمية نافعة راسخة بالأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٤- أن نسلك المسلك السلفي في التأليف، فلا نشحن الكتاب بالكلام الفلسفي، ولا نتكلّف فيه، وأن نجعله سهلاً ميسراً وإن كبُر حجمه، المهم يكون كتاباً علمياً نافعاً مطرّزاً بالأدلة =

=

من الكتاب والسنّة، وهذا فيه ردٌ على الذين ينتقدون الكتب السلفية العلمية التي فيها قال الله وقال رسوله ويقولون "كتب حيض ونفاس" "كتب حجرية" "كتب ليس فيها فهم للواقع" نعوذ بالله من هذا البغي الخبيث على دين الله، والتزهيد من كتب السلف، نسأل الله العافية.

٥- أن ندعو الله جل وعلا أن ينفع به، ما دام كتاباً علمياً نافعاً.

٦- أن نعلم أن الأمور بيد الله سبحانه وتعالى وأن النفع والضر والعزة والذلة والرفعة والمهانة بيد الله جل وعلا، فلا يتّكل الشخص إلى علمه ولا إلى ذكائه، ولا إلى كثرة ماله وأتباعه، نسأله سبحانه أن يكتب لنا ما هو خير وأنفع.

٧- أن نعلم أن بركة العالم تكون في علمه، إما قولاً أو فعلاً، على المسموع أو المرئي، في الحبر أو اللسان، بركة يضعها الله أين شاء وكيف شاء ومتى شاء.

ويتلخص ذلك فيما يأتي:

* القرآن الكريم:

١- متى نزل القرآن على النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، ومن نزل به عليه من الملائكة؟

٢- أول ما نزل من القرآن.

٣- نزول القرآن على نوعين: سببي وابتدائي.

٤- القرآن مكي ومدني، وبيان الحكمة من نزوله مفرقاً، وترتيب القرآن.

٥- كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

٦- جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما.

* التفسير:

١- معنى التفسير لغة واصطلاحاً، وبيان حكمه، والغرض منه.

٢- الواجب على المسلم في تفسير القرآن.

٣- المرجع في التفسير إلى ما يلي:

أ- كلام الله تعالى بحيث يُفسّر القرآن بالقرآن.

ب- سنة الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-؛ لأنه مبلغ عن الله تعالى، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله.

ج- كلام الصحابة رضي الله عنهم، لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، وفي عصرهم.

د- كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم.

هـ- ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق، فإن اختلف

الشرعي واللغوي أُخذ بالمعنى الشرعي إلا بدليل يرجح اللغوي.

٤- أنواع الاختلاف الوارد في التفسير المأثور.

٥- ترجمة القرآن: تعريفها - أنواعها - حكم كل نوع.

* خمس تراجم مختصرة للمشهورين بالتفسير: ثلاث للصحابة، واثنتان للتابعين.

* أقسام القرآن من حيث الإحكام والتشابه.

- موقف الراسخين في العلم، والزائغين من المتشابه.

- التشابه: حقيقي ونسبي.

- الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.

* موهم التعارض من القرآن والجواب عنه، وأمثلة من ذلك.

* القَسَم: تعريفه - أداته - فائدته.

* القصص: تعريفها - الغرض منها- الحكمة من تكرارها واختلافها في الطول والقِصَر والأسلوب.

* الإسرائيليات التي أُقحمت في التفسير وموقف العلماء منها.

* الضمير: تعريفه - مرجعه - الإظهار في موضع الإضمار وفائدته - الالتفات وفائدته - ضمير الفصل وفائدته.

* * * *

(القُرآنُ الكَريمُ)

القرآن في اللغة: مصدر قرأ بمعنى تلا، أو بمعنى جَمَع، تقول: قَرَأَ قَـرْءاً قُرْآنـاً، كـما تقول: غَفَرَ غَفْراً وغُفْرَاناً، فعلى المعنى الأول "تَلاَ": يكون مصدراً بمعنـى اسـم المفعـول؛ أي: بمعنى متلو. وعلى المعنى الثاني "جَمَعَ": يكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل؛ أي: بمعنى جامع؛ لجمعه الأخبار والأحكام [1].

والقرآن في الشرع: كلام الله تعالى المنزل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد –صـلى الله عليه وسلم–، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس، قال الله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ [الإنسان:٢٣]، وقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَـاهُ قُرْآنًـا عَرَبِيًّـا لَعَلَّكُـمْ تَعْقِلُـونَ﴾

(١) المعنيان صحيحان، فهو قرأ بمعنى جمع، وقرأ بمعنى تلا، فالقرآن مقروء أي: متلو، وقارئ أي: جامع، ويُقال للقرية قرية لجمعها الناس.

❊مسألة: لماذا سمي القرآن قرآناً؟

قيل: لجمعه الأخبار والأحكام.

وقيل: لأنه يجمع السور فيضمها.

وقيل: لكونه جمع جُمَلَه من القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد...الخ.

وقيل: لجمعه كتب الله المنزّلة. وقيل لأنه جُمع في الصدور والمصاحف.

وهذه الأقوال كلها صحيحة يشملها هذا الجمع.

انظر "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب الأصفهاني (ص:٦٦٨-٦٦٩) "تفسير ابن جرير الطبري"(٢٣/ ٤٩٦-٥٠٤) "شرح أصول في التفسير" للشيخ العثيمين (ص:١٢٩) "النهاية" لابن الأثير (ص:٧٣٨).

[يوسف:٢] (١).

وقد حمى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغير والزيادة والنقص والتبديل، حيث تكفّل الله عز وجل بحفظه فقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] (٢)،

(١) أشمل تعريفٍ للقرآن الكريم شرعاً: هو كلام الله تعالى المنزّل على رسوله ﷺ، بواسطة الأمين جبريل –عليه السلام–، المعجِز، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس.

(٢) حمى الله القرآن الكريم من التغيُّر والزيادة، ومن النقص في الألفاظ، والتبديل في المعاني، وما من شخص أراد تحريفه لفظاً أو معنى إلا هتك الله ستره وفضحه.
وقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]: فيه أن الله تكفّل بحفظه، ولم يكل حفظه لأحد.
والضمير في قوله ﴿لَهُ﴾ يعود إلى القرآن الكريم على القول الصحيح، وقد قيل: إنه يعود إلى النبي ﷺ، بدليل قوله تعالى ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، والصحيح الأول كما تقدّم لظاهر سياق الآية.
وهذا المعنى مبيّن في مواضع أُخر من القرآن الكريم قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١–٤٢]، وقال تعالى ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٦–١٩].
قال العلامة السعدي رحمه الله في "تفسيره": ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: في حال إنزاله، وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله: حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله: أودعه الله في قلب رسوله ﷺ، واستودعه فيه، ثم في قلوب أمته.
وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرّف محرّف معنىً من معانيه، إلا وقيّض الله له من يبيّن الحق المبين ا.هـ
وانظر "أضواء البيان"(٣/ ١٢٠).

=

قلت: حفْظُ الله للقرآن الكريم على أمرين:

الأمر الأول: حفظه في الصدور، في صدر النبي ﷺ، وفي صدر جلِّ الصحابة رضي الله عنهم، وفي صدر جلّ التابعين، وهكذا من بعدهم، حفظ الله القرآن في صدور الرجال، قال تعالى ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

وقال تعالى ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٦-١٩].

الأمر الثاني: حفظه في السطور والمصاحف والكتب، فالقرآن مدوّن كتابة وحفظاً، لله الحمد والمنّة.

ولقد كان من حفظ القرآن العظيم الجمع المبارك الذي قام به أبو بكر ثم عثمان رضي الله عنهما، وسيأتي الكلام على هذين الجمعين بتفاصيلهما في باب "كتابة القرآن وجمعه" إن شاء الله تعالى.

وعلى كلٍ هذه ميزة عظيمة لهذه الأمة المحمدية أن قرآنها محفوظ بحفظ الله تعالى، ولم يكل حفظه للبشر.

بخلاف الكتب السابقة فقد استودع الله حفظها على أصحابها، وطلب منهم حفظها، متى حفظوها حُفظت، ومتى ضيعوها ضاعت وذهبت، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهَّ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] فخانوا الأمانة وضيّعوها. انظر "أضواء البيان"(٢/ ١٠٠).

*مسألة: هل حُرّفت الكتب السابقة؟

اختلف أهل العلم في التبديل الذي حصل من قِبل اليهود للتوراة والإنجيل، هل بُدلت بأكملها أو بعضها؟ على أربعة أقوال:

القول الأول: بُدِّلت كلُّها.

القول الثاني: التبديل وقع في معظمها، قال الحافظ: وأدلته كثيرة، وينبغي حمل الأول عليه .

القول الثالث: التبديل وقع في اليسير منها، ومعظمها باقٍ على حاله، نصر هذا القول شيخ الإسلام رحمه الله.

ولذلك مضت القرون الكثيرة [(١)] ولم يحاول أحد من أعدائه أن يغيّر فيه، أو يزيـد، أو ينقص، أو يبدل، إلا هَتَكَ الله تعالى ستره، وفضح أمره [(٢)].

= القول الرابع: التبديل وقع في المعاني لا الألفاظ، ويُردّ على هذا القول أن التحريف والتبديل بالمعنى لا شك فيه حصل كثيراً، لكن هل حصل في الألفاظ؟! هذا هو موضوعنا.

ولا شك أنه حصل التبديل كما بيّن ذلك ابن حزم رحمه الله في "الملل والنِّحَل" كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله. وللأهمية انظر "فتح الباري" للحافظ ابن حجر (١٣/ ٦٥٣-٦٥٥).

(١) القرن مائة عامٍ، على القول الرَّاجح؛ لما روى البزار كما في "كشف الأستار"(٣/ ٢٨٠) وأحمد في "المسند" برقم (٣٢٠٨)، من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَتُدْرِكَنّ قَرْنَاً» قال محمد بن القاسم الطائي الراوي عن عبد الله: فبلغنا أنه أتت عليه مائة سنة. ولفظ أحمد «لَتَبْلُغَنَّ قَرْنَاً»، ونصُّه: قال: وَضَع رسولُ الله ص أُصبعَه على قرني، ثمَّ قال «لَتَبْلُغَنَّ قَرْنَاً»وهو حديث حسن.

وانظر "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (٦/ ٣٦٠-٣٦١) عند الآية السادسة من سورة الأنعام، "نظم الدرر" للبقاعي، عند الآية السادسة من سورة الأنعام، "الدرُّ النثور" للسيوطي (٥/ ١٣٠-١٣١) الآية الثامنة والثلاثين من سورة الفرقان، "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" للفيروز آبادي (٤/ ٢٦٠) (بصيرة في قَرْن) "فتح القدير" للشوكاني (٤/ ٧٩-٨١) عن الآية التاسعة والثلاثين من سورة الفرقان، "عمدة القاري بشرح صحيح البخاري" للعيني (٧/ الجزء ١٣/ ٢١٣) (باب: لا يشهد على شهادة جور ...) "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" للمُلَّا علي القاري (باب: الأقضية) "سلسلة الأحاديث الصحيحة" للألباني (٨/ ٢٦١).

(٢) الزيادة والنقص تكون في الألفاظ، والتبديل يكون في المعاني.

والتحريف: على نوعين:

١- تحريف لفظي. ٢- تحريف معنوي. =

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة، تدل على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:٨٧] (١).

أما التحريف المعنوي: فهو تحريف معنى الآية، كتحريف الأشاعرة قوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، قالوا: اليد هنا بمعنى: النعمة والقدرة، فحرّفوا المعنى عن ظاهره، أرادوا به نفي صفة اليدين. انظر "مقدمة في أصول التفسير" لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص:٩١-٩٢) بشرح شيخنا يحيى الحجوري حفظه الله، و"الصواعق المرسلة"(١/ ٢١٩).

وأما التحريف اللفظي: فهو على أنواع:

١-تحريف بالشكل، كتحريف قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] قالوا: "وكلّم اللهَ موسى" نصبوا لفظ الجلالة، وجعلوا الله هو المُكَلَّم، فالله مفعول وموسى فاعل؛ أرادوا بهذا التحريف نفي الكلام عن الله تعالى.

٢ - تحريف بالحرف، كتحريف الياء المقصورة في قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥١] وفي قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] وتبديلها بلام، قالوا: "الرحمن على العرش استولى" "ثم استولى على العرش"؛ أرادوا بذلك نفي صفة استواء الله على عرشه. انظر "الصواعق المرسلة" لابن القيم (١/ ٢١٥-٢٢٠).

٣ - تحريف بالكلمة، كزيادة الرافضة "وجعلنا علياً صهرك" في سورة الشرح، قالوا: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (وجعلنا علياً صهرك!!) ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.

وزيادتهم "في علي" في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ قالوا: "بلّغ ما أنزل إليك من ربِّك في عليٍ فإن لم تفعل فما بلّغت رسالته".

(١) اختلف المفسِّرون في السبع المثاني ما هي؟ على ثلاثة أقوال:

الصحيح منها: أنها سورة الفاتحة، وهو قول جمهور المفسرين كما بيَّنَّا ذلك مع أدلته في الشرح.

*مسألة: لماذا سميت سورة الفاتحة بالسبع المثاني؟

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١][1].

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥][2].

= الجواب: على هذا القول أنها الفاتحة، قيل: لأنها تُثنى في الصلاة، فتُقرأ في كل ركعة، جاء ذلك عن ابن عباس، وقتادة، والحسن.

وقيل: لأنها تُثنى مع ما يُقرأ معها، قاله الزّجّاج.

وقيل: لأنها قُسّمت إلى قسمين: نصفها ثناء، والنصف الآخر دعاء، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، ...».

وقيل: لأنها نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة، قاله الحسين بن الفضل.

وقيل: لأن كلماتها مثناة، فقوله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾١- الرحمن ٢- الرحيم ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ١- مالك ٢- يوم الدّين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١- إيّاك نعبد ٢- إياك نستعين ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ١- اهدنا الصراط المستقيم ٢- صراط الذين أنعمت عليهم ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ ١- غير المغضوب عليهم ٢- ولا الضالين. هذا القول ذكره ابن عادل في "اللباب في علوم الكتاب".

انظر "تفسير ابن جرير"(١٤/ ١٠٧-١٢٦) "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٠/ ٥١-٥٢) "اللُّباب" لابن عادل (١١/ ٤٨٥-٤٨٨) "فتح الباري" لابن حجر (٨/ ٤٨٤-٤٨٥).

(١) فيه أنَّ الله تعالى أقسم بهذا القرآن، ولا يقسم سبحانه وتعالى إلا بعظيمٍ، وهذا القرآن مجيدٌ؛ أي: عظيمٌ كريمٌ.

(٢) في هاتين الآيتين بيانٌ لبركة القرآن، ونظيرها قوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام:٩٢] وقوله تعالى ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٥٠].

والبركة: هي كثرة الخير ودوامه. والمبارك: من أُلقي عليه بركته. "النهاية" (٧٤) و"بدائع الفوائد"(٢/ ٦٨١) و"فتح القدير" (٤/ ٨١) و"شرح العقيدة الواسطية"(ص:١٢٢-١٢٣) =

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٧].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩][1].

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١][2].

= الحاصل أن القرآن مبارك قراءة وعملاً وأجراً، محكمه ومتشابهه، بما فيه من بيان الحلال والحرام، وشؤون المسلمين،.. الخ.

(١) قال العلامة الشنقيطي رحمه الله في "أضواء البيان"(٣/ ٤٠٩): ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً برب العالمين جلَّ وعلا -يهدي للتي هي أقوم. أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب...

وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم. لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة...

-ثم ذكر رحمه الله بعضاً من هدى القرآن للطريق الأقوم، ولخصتها في الشرح..

(٢) قال ابن كثير رحمه الله في "تفسيره" عند هذه الآية: يقول تعالى معظما لأمر القرآن ومبيناً علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل؛ فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟! ولهذا قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾...

وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حنَّ الجذع وجعل يئنُّ كما يئن الصبي الذي يسكت، لما =

﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥] (١).

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] (٢).

= كان يسمع من الذكر والوحي عنده، ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده: فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع.

وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصمّ لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته؛ فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟ وقد قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد:٣١] الآية، وقد تقدم أن معنى ذلك أي لكان هذا القرآن، وقد قال تعالى ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة:٧٤]..الخ.

(١) في هاتين الآيتين الكريمتين بيان لثمرة القرآن وفوائده، وأن المؤمن يزداد إيمانه بقراءته وتصديقه والعمل به، وأما الذين في قلوبهم مرض فتزيدهم حسرة إلى حسرتهم، وخسارة إلى خسارتهم.

وقراءة القرآن من أجلّ وأعظم الأعمال الصالحة، فالإيمان يزيد بالطاعة والعمل الصالح، وينقص بالمعصية والعمل السيئ، للأدلة الكثيرة في ذلك، منها: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، وقوله تعالى ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر:٣١]، وقوله تعالى ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]، وعلى هذا أهل السنة والجماعة.

(٢) قوله تعالى ﴿لأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ أي: يا أهل مكة. وقوله تعالى ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ اختلف المفسرون فيها على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: من بلغه القرآن من العرب والعَجَم، وقيل: من الثقلين، وقيل: بلغه القرآن إلى يوم القيامة. =

﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢] [١].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩] [٢].

=

القول الثاني: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: ومن بلغ الحُلُم، بمعنى: لأنذر الذي بلغ الحُلُم.

القول الثالث: ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: لأنذركم به، ولينذركم الذي بلغه القرآن.

وأقوى الأقوال عندي: هو القول الأول.

انظر "اللباب في علوم الكتاب"(٨/ ٦٦) "الجامع لأحكام القرآن"(٦/ ٣٦٧-٣٦٨).

(١) اختلف المفسرون في عود الضمير في قوله ﴿بِهِ﴾ إلى من يعود؟ فقال بعضهم: يعود إلى القرآن، وقال بعضهم: إلى الإسلام، وقال البعض الآخر: إلى السيف. والصحيح: القول الأول. انظر "فتح القدير" للشوكاني (٤/ ١٠٩).

(٢) اختلف أهل العلم في قوله ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ هل هو على عمومه؟ على قولين: القول الأول: ليس على عمومه، بل هو من العام المراد به الخاص، كقوله تعالى عن ريح عاد ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]، ومعلوم أنها لم تدّمر السماء والأرض، وإنما دمرت تلك البقاع التي تسكنها عاد.

فقوله تعالى ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: لكل شيء يحتاجون إلى ذكره وبيانه.

القول الثاني: الآية تبقى على عمومها، والمراد أن كل شيء ذُكر مجملاً ومفصلاً، فما أجمل في القرآن فقد فُصِّل في موضع آخر منه، أو في السنة النبوية، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر:٧].

والقولان صحيحان؛ أعني: من حيث أنه ما من شيء يحتاج الناس إلى بيانه ومعرفته من أمور الشريعة إلا هو موجود في الكتاب، إما مجمل فصّلته السنة، والسنة وحيٌ، وإما مجمل بينه الكتاب وفصّله في موضع آخر، فما من مسألة شرعية إلا وهي موجودة في الكتاب الكريم نصاً أو إجمالاً، تضمناً، أو لزوماً، أو استنباطاً.

=

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [المائدة:٤٨] (١).

والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية التي بُعث بها محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى الناس كافة، قال الله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١-٢].

وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- مصدر تشريع -أيضاً- كما قرره القرآن، قال الله تعالى ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠]، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، ﴿ وَمَا

= ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]: اختلف أهل العلم في الكتاب ما هو؟

فقيل: اللوح المحفوظ، وقيل: القرآن الكريم، والصواب القول الأول.

انظر "شفاء العليل" (ص:٤٠-٤١) "أضواء البيان"(٣/ ٣٣٥-٣٤٦) مهمٌ جداً "الجامع لأحكام القرآن"(٦/ ٣٨٥) "اللباب في علوم الكتاب"(١٢/ ١٤٠-١٤١).

(١) للحافظ ابن كثير رحمه الله تفسيرٌ طيب لهذه الآية، فليراجع.

*تتمة: وللقرآن الكريم أسماءٌ وأوصافٌ، أوصلها الزركشي إلى اثنين وخمسين اسماً ووصفاً، وقد ذكرناها في الشرح، وانظر "إمتاع ذوي العرفان بكلام شيخ الإسلام في علوم القرآن"(ص:٨٠٥-٨١١).

آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١] (١).

(١) إنَّ شرع الله المبارك مبناه على الكتاب والسنة والإجماع، ولا إجماع إلا بدليل، والأمة لا تجتمع على ضلالة.

أما الكتاب؛ فأدلته كثيرة جداً، منها ما ذكره المؤلف ﵀، ومنها: قوله تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣]، وقوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]، وقوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:١٥٥].

وروى الإمام مسلم برقم (١٢١٨)، عن جابر بن عبد الله ﵄ في صفة حجة النبي ﷺ وفيه: قال ﷺ «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللهِ».

وعن زيد بن أرقم ﵁ قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة، فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال « أَمَّا بَعْدُ: أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فحث على كتاب الله ورغب فيه... رواه مسلم برقم (٢٤٠٨)، وفي لفظ له «كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ وَأَخَذَ بِهِ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ».

وفي لفظ له أيضاً «...كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ اللهِ مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلاَلَةٍ».

وأما السنة: فهي المصدر الثاني للتشريع، لأدلة منها ما ذكره المؤلف ﵀، ومنها: قال تعالى عن نبينا ﷺ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤]، وقال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوف وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ =

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وقال تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ١١٥].

وروى الإمام مسلم برقم (٨٦٧)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وفيه: قال رسول الله ﷺ «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ» الحديث.

وروى الإمام البخاري برقم (٧٢٨٨)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

❋والسنة مع القرآن على أربع حالات:

١- مبينة وموضحة ومفسّرة للقرآن. ٢- تأتي موافقة للقرآن. ٣- تأتي بشرع منفرد ليس منصوصاً عليه في القرآن. ٤- وتأتي ناسخة للقرآن على الصحيح، وقد بيّنّا كلَّ ذلك في الشرح.

وأما الإجماع؛ فهو حجة معمول به، عند عامة أهل العلم، ولا يكون الإجماع إلا بدليل، ولا تجتمع هذه الأمة على ضلالة، ولا تجوز مخالفته، ولا جحده، كما بيّنّاه في الشرح، قال تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ١١٥]، وقال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وروى الإمام الحاكم رحمه الله في "المستدرك"(١/ ١١٦)، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «لَا يَجمعُ اللهُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ أَبَداً، وَيَدُ اللهِ عَلَى الجَمَاعَةِ» وهو حديث صحيح.

وانظر "الإحكام" للآمدي (١/ ١٧٠) (١/ ٢٢١) (١/ ٢٣٩) "المحصول" للرازي (٣/ ٨٩٠) "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي (١/ ٤٣٤) "البحر المحيط" للزركشي (٤/ ٥٣٨-٥٤٠) "مجموع الفتاوى"(١٩/ ٢٦٩-٢٧٠) "معالم أصول الفقه" للجيزاني =

* * * *

= (ص:١٨٣) "إجماعات الأصوليين"(ص:٢٠٦-٢٠٩) "التحقيقات في شرح الورقات" لابن قاران (ص:٤٠٧) "شرح نظم الورقات" للعثيمين (ص:١٥٧).

(نُزُولُ القُرآن)

نزل القرآن [(١)] أول ما نزل على رسول الله –صلى الله عليه وسلم [(٢)]– في ليلة القـدر في رمضان، قال الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ﴾ [القـدر:١]، ﴿إِنَّـا أَنْزَلْنَـاهُ فِي لَيْلَـةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْـرٍ حَكِـيمٍ﴾ [الـدخان:٣-٤]، ﴿شَـهْرُ رَمَضَـانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥] [(٣)].

---

(١) معنى النزول في الأصل: هو انحطاط من علو، يُقال: نزل عن دابته، ونزل من مكان كذا: حط رحله فيه...الخ. "مفردات ألفاظ القرآن"(ص:٧٩٩).

والنزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر؛ هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل ا.هـ "التبيان في أقسام القرآن" لابن القيم (ص:١٤٥) فصل رقم (٦١).

وانظر "مجموع الفتاوى "(١٢/ ١١٨و٢٤٧-٢٥٧) و"مختصر الصواعق"(٣/ ١١٠٠) و"كتاب التوحيد" لابن خزيمة (ص:٢٢٧).

(٢) القرآن نزل على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ كما بيَّن الله ذلك كثيراً، وقد ذكرنا أدلة كثيرة على ذلك، منها: قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ، وقال تعالى ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران:٣]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦]، وقال تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وقال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ [الإنسان:٢٣].

(٣) فيه أنَّ القرآن نَزَلَ جملةً إلى السماء الدنيا، وكان نزوله في ليلة القدر في شهر رمضان المبارك.

وبُعث رسول الله ﷺ، حين نزل عليه القرآن، كما بيَّنَّا ذلك في الشرح.

انظر "التمهيد" لا بن عبد البر (١٥/ ١٦٥-١٧٥) "فتح الباري"(٩/ ٦-٧) "السيرة النبوية"(١/ ١٧١) "زاد المعاد"(١/ ٧٧-٧٨).

وكان عمر النبي –صلى الله عليه وسلم– أول ما أنزل عليه القرآن أربعين سنة على المشهور عند أهل العلم، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم. وهذه السن هي التي يكون بها بلوغ الرشد، وكمال العقل، وتمام الإدراك (١).

والذي نزل بالقرآن من عند الله تعالى إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– جبريل، أحد الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] (٢).

(١) كان عمر النبي ﷺ حينما أُنزل عليه القرآن أربعين سنة، وهي سنة مبعثه عليه الصلاة والسلام، هذا الذي عليه جمهور العلماء، ونصَّ عليه أكثر من واحد من أهل العلم، استدلالاً بحديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري برقم (٣٨٥١) ومسلم برقم (٢٣٥١) قال: أنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين،... الخ.
وفي لفظٍ: بعث رسول الله ﷺ ... الخ. رواه البخاري برقم (٣٩٠٢) ومسلم برقم (٢٣٥١).
وجاء بنحوه عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم عند البخاري برقم (٢٣٤٧).
وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عند البخاري برقم (٣٥٤٨،٣٥٤٧).
واتفق أهل العلم أن مبعثه ﷺ ونزول القرآن عليه، كان يوم الاثنين، لحديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه في صحيح مسلم برقم (١١٦٢)، أن رسول الله ﷺ سُئل عن صوم يوم الاثنين؟ فقال «فِيهِ وُلِدتُ، وَفِيهِ أُنزِلَ عَلَيَّ».
نقل الاتفاق ابن قيم الجوزية رحمه الله في "زاد المعاد"(١/ ٧٧)، والحافظ ابن كثير رحمه الله في "السيرة النبوية"(١/ ١٧١).
(٢) ومن الأدلة: قال تعالى ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى =

لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠١-١٠٢]، وقال تعالى ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهَّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧].

انظر "الأضواء"(٦/ ٣٨٠) عند آية الشعراء، "مجموع الفتاوى"(١٢/ ٩٨) "البرهان" للزركشي (١/ ٢٢٩).

*فائدة: مراتب القرآن من حيث الكتابة والإنزال والتنزيل:

الأولى: كُتِبَ قبل إنزاله في اللوح المحفوظ.

الثانية: إنزاله جملة إلى السماء الدنيا.

الثالثة: تكلّم الله به، وسماع جبريل منه.

الرابعة: نزول جبريل به، وسماع النبي ﷺ منه.

انظر "مجموع الفتاوى"(١٢/ ١٥و١٢٦-١٢٧).

*مسألة: كيفية تبليغ الوحي القرآنَ للنبي ﷺ:

الوحي نوعان: ١- وحي الله لملائكته ٢- وحي الله لرسله.

وقد تكلمتُ على هذه المسألة في كتابي "إتحاف ذوي الفضل والإيمان ببيان ما يتعلق بنزول القرآن" -يسر الله طبعه- بما يغني عن إعادته هنا.

وسأذكر هنا -إن شاء الله- الذي نريده في هذا الموضوع، وهو وحي الله لرسله، فوحي الله لرسله على حالتين:

١- وحيه لرسله بواسطة ٢- وحيه لرسله بغير واسطة.

أما الأولى: وحيه لرسله بواسطة، والواسطة: جبريل عليه السلام، وقد كان جبريل يأتي إلى النبي ﷺ ويوحي إليه، بإحدى أربع حالات:

١- يأتيه جبريل بصوت مثل صلصلة الجرس، وهي أشد حالة عليه صلوات الله وسلامه عليه، وهذا الصوت الشديد لتركيز ذهن النبي ﷺ على ما يلقى عليه من الوحي، فيرسخ ما يلقيه عليه جبريل في قلبه حفظاً وفهماً. وسيأتي ذكر الدليل على ذلك.

٢- يأتيه جبريل متمثلاً برجلٍ في صورة بشر ، وهذه الحالة أخف من الأولى، فهو عندما يأتيه على صورة بشر يستأنس به النبي ﷺ، ويأنس عند سماعه من رسول الوحي -عليه السلام-، ويطمئن إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

= ودليل هذه الحالة والتي قبلها، ما رواه البخاري برقم (٢) ومسلم برقم (٢٣٣٣)، عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ» قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

٣- النفث في الروع، وهو القلب، روى الإمام ابن أبي شيبة في "المصنف"(٨/ ١٢٩) ومعمر بن راشد في "جامعه" كما في "مصنف عبد الرزاق"(٢٠١٠٠) وغيرهما، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ قَد نَفَثَ فِي رَوعِي أَنَّ نَفسَاً لَن تَموتَ حتَّى تَستَوعِبَ رِزقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلا يَحملنَّ أَحدَكَم استِبطاءُ الرِّزق أن يَطلبَه بمعصيةِ الله، فإنَّ اللهَ لا يُنالُ مَا عِندَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ» صححه العلامة الألباني رحمه الله في "السلسلة الصحيحة" برقم (٢٨٦٦).

٤- يأتيه جبريل على صورته التي خُلق عليها، كما في حديث عائشة رضي الله عنها في "صحيح مسلم" برقم (١٧٧) قال مسروق: كنت متكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة! ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال وكنت متكئاً فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني؛ ألم يقل الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ﴾ [التكوير:٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم:١٣]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ المَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ» ... الحديث.

وأما الثاني: وهي وحيه لرسله بغير واسطة، وهي على حالتين:

١- الرؤيا الصالحة في المنام: روى الإمام البخاري برقم (٣) ومسلم برقم (١٦٠)، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه...الحديث. انظر "شرح مسلم" للنووي (٢/ ٣٧٤). =

ومن الأدلة على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء في المنام وحي، قصة إبراهيم في رؤيته أنه يذبح ابنه، في سورة [الصافات:١٠١-١١١].

٢- كلامه سبحانه وتعالى من وراء حجاب يقظة: قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ لْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١].

ومن الأدلة -أيضاً- قصة إسراء النبي ﷺ وعروجه إلى السماء السابعة، وهي في البخاري برقم (٧٥١٧) ومسلم برقم (١٦٢).

*مسألة: كيفية نزول القرآن الكريم:

اختلف العلماء -رحمهم الله- في كيفية نزول القرآن على ثلاثة أقوال:

الصحيح: نزل القرآن إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة، وهذا قول جمهور أهل العلم، وثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما بينَّاه في الشرح.

وانظر "البرهان"(١/ ٢٢٨-٢٢٩) "الإتقان"(١/ ١١٦-١١٩) "فتح الباري"(٩/ ٦-٧) "فضائل القرآن" لابن الضريس (ص:١٢٥-١٢٧) "الجامع لأحكام القرآن"(٢٠/ ١٢٠) "تفسير الماوردي"(٦/ ٣١١-٣١٢) "مباحث في علوم القرآن"(ص:١٠٠-١٠٤).

*من أدلة نزول القرآن مفرَّقاً:

علمنا أن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا، وأنه نزل بعد ذلك منجماً مفرقاً على حسب الأحداث والوقائع.

أما نزوله جملة إلى السماء الدنيا فمتفق عليه بين أهل العلم، حكاه القرطبي كما ذكر ابن كثير، كما في "الإتقان"(١/ ١١٧-١١٨).

وأما نزوله مفرقاً فكما سبقت الإشارة إلى الخلاف في المسألة، وذكر أهل العلم أدلة تدل على نزول القرآن مفرقاً على حسب الأحداث والوقائع، منها:

وقد كان لجبريل – عليه السلام – من الصفات الحميدة العظيمة، من الكرم، والقوة، والقرب من الله تعالى، والمكانة، والاحترام بين الملائكة، والأمانة، والحسن،

= أولاً: التفريق بين لفظ الإنزال والتنزيل: فلفظ الإنزال يدل على نزول القرآن جملة واحدة، ولفظ التنزيل يدل على نزول القرآن مفرقاً، وهذا له أصل في اللغة. انظر "المفردات"(ص:٧٩٩).

أما الإنزال، هو نزول القرآن جملة إلى سماء الدنيا في شهر رمضان، في ليلة القدر، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، وقال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

وأما التنزيل، وهو نزول القرآن مفرقاً على حسب الأحداث والوقائع، فقال تعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء:١٠٦]، وقال تعالى ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧]، وقال تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:٢٠].

ثانياً: التصريح بلفظ التفريق: قال سبحانه وتعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء:١٠٦].

ثالثاً: طلب الكفار من النبي ﷺ أن ينزل إليه القرآن جملة واحدة كما نزل إلى السماء جملة في شهر رمضان: قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:٣٢].

رابعاً: الأمثلة في أسباب نزول بعض الآيات والسور، وهي كثيرة، وقد ذكرنا جملة منها في الشرح.

خامساً: ما ثبت في السنة الصحيحة في أن أول ما نزل من القرآن الكريم الخمس الآيات الأوَل من سورة العلق، تلتها الخمس الآيات الأوَل من سورة المدثر.

*تنبيهٌ: هناك عدة مسائل تابعة لمسألة الكلام على النزول ذكرناه بتوسع في الشرح.

والطهارة؛ ما جعله أهلاً لأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله، قال الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢١]، وقال ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ [النجم:٥-٧]، وقال ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

وقد بيّن الله تعالى لنا أوصاف جبريل –عليه السلام– الذي نزل بالقرآن من عنده وتدل على عِظَمِ القرآن وعنايته تعالى به؛ فإنه لا يرسل من كان عظيماً إلا بالأمور العظيمة (١).

(١) لجبريل –عليه الصلاة والسلام– صفات عظيمة، خلْقِيَّةٌ، وخُلُقيَّة.
فمن صفاته الخَلْقية: أنه –عليه السلام– شديد القوى، قال تعالى ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ [النجم:٥-٧].
وأنه –عليه السلام– عظيم الخِلْقة، ذو هيبة، عليه حُلَّةٌ من رفرف أخضر، يسد ما بين الأفق، ملأ ما بين السماء والأرض، له ستمائة جناح، قال تعالى ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨]، ففي البخاري برقم (٣٢٣٤)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: من زعم أن محمداً رأى ربَّه؛ فقد أعظَمَ، ولكن قد رأى جبريل في صورته، وخَلْقُهُ سادٌّ ما بين الأفق.
وروى الإمام أحمد رحمه الله في "المسند" برقم (٣٧٤٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:١٠] قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل في حُلَّةٍ من رفرف، قد ملأ ما بين السماء والأرض. إسناده صحيح.
(٢) ومن صفاته الخُلُقية: أنه الروح الأمين، وروح القدُس، قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤-١٩٥].
=

❊ ❊ ❊ ❊

= وكان يُوحَي –عليه السلام– إلى النبي ﷺ، وقد رويت أحاديث في ذلك منها: حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعروف بحديث جبريل الطويل، وفيه قال ﷺ «إِنَّه جَبرِيلُ أَتَاكُم يُعلِّمَكُم دِينكُمْ» رواه مسلم برقم (٨)، وجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه في البخاري برقم (٥٠) ومسلم برقم (٩) بلفظ « هَذَا جِبرِيلُ جَاءَ لِيُعلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ».

وقد كان أمَّ النبيَّ ﷺ، في بعض الصلوات، كما روى البخاري برقم (٥٢١) ومسلم برقم (٦١٠)، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وقد ذكرناه في الشرح.

(أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ القُرآن)

أول ما نزل من القرآن على وجه الإطلاق قطعاً الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وهي قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

ثم فتر الوحي مدة، ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر، وهي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥].

ففي الصحيحين -صحيح البخاري ومسلم-، عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي، قالت: حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» يعني: لست أعرف القراءة، فذكر الحديث، وفيه ثم قال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

وفيهما عن جابر رضي الله عنهما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال وهو يحدّث عن فترة الوحي «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ...» فذكر الحديث، وفيه : فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥] (١) .

---

(١) اختلف أهل العلم في أوَّل ما نزل من القرآن على أربعة أقوال، ذكرناها مع المناقشة بتوسُّعٍ في الشرح، والخلاصة: أن أول ما نزل من القرآن الكريم هي الخمس الآيات الأُوَل من سورة "العلق".

لحديث الباب الذي ذكره المؤلف رحمه الله مختصراً، الذي رواه البخاري برقم (٣) ومسلم برقم (١٦٠)، وهذا القول قال به جمهور العلماء من المتقدمين والمتأخرين، وهو قول عائشة رضي الله عنها، كما ثبت عنها عند ابن جرير الطبري رحمه الله في "تفسيره"(٢٤/ ٥٣٠).

=

وثمَّت آيات يقال فيها: أول ما نزل، والمراد: أول ما نزل باعتبار شيء معيّن، فتكون أوليَّة مقيدة، مثل: حديث جابر رضي الله عنه في الصحيحين: أن أبا سلمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أنزل أول؟ قال جابر ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، قال أبو سلمة: أنبئت أنه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾؟ فقال جابر: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي هَبَطْتُ... » فذكر الحديث، وفيه فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ دَثِّرُونِي. فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]».

= وأما حديث جابر الذي رواه البخاري برقم (٤) ومسلم برقم (١٦١) عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي، قال في حديثه «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِى سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِى جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي. فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]» وهي الأوثان، قال: ثُمَّ تَتَابَعَ الوَحيُ.

وحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الآخر، الذي رواه البخاري برقم (٤٩٢٢) و(٤٩٢٤) ومسلم برقم (١٦١) عن يحيى قال: سألت أبا سلمة، أي القرآن أنزل قبل؟ قال ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: أو اقرأ؟ فقال: سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل قبل؟ قال ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فقلت: أو اقرأ؟ قال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ - يَعْنِى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ - فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ شَدِيدَةٌ، فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ دَثِّرُونِي. فَدَثَّرُونِي، فَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:١-٤]»؛ فتوجيهما على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

فهذه الأولية التي ذكرها جابر رضي الله عنه باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة "اقرأ" ثبتت بـه نبـوة النبـي –صـلى الله عليـه وسلم–، وما نزل من سورة "المدّثر" ثبتت به الرسالة في قوله ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر:٢].

ولهذا قال أهل العلم: إن النبـي –صـلى الله عليـه وسـلم– نُبّـئ بــ"اقـرأ" وأرسـل بـ"المدثر" (١).

(١) هذه أولية باعتبار، وبهذا نستطيع أن نوجِّه هذا الحديث من عدَّة وجوهٍ، وهي:

الوجه الأول: أن السؤال في هذا الحديث كان عن نزول سورة كاملة، أي: ما هي أول سورة نزلت بكمالها؟ فبيّن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن سورة المدثر أول سورة أنزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة "اقرأ"؛ فإن أول ما صدر منها الخمس الآيات الأوَل، بدليل اللفظ الأول الذي فيه (فإذا الملك الذي جاءني بحراء) فهذه القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزلت فيها الخمس الآيات الأُوَل من سورة "اقرأ".

الوجه الثاني: قول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بأولوية المدثر، يُعنى بها: أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، لا أولية مطلقة، بمعنى: أول سورة أنزلت بعد فترة الوحي هي سورة المدثر؛ وذلك لأن الوحي انقطع فترة من الزمن بعد نزوله أول مرة، ثم جاء ونزل مرة أخرى بالمدثر.

الوجه الثالث: أن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الأولوية المقصود بها: الأمر بالإنذار، بمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما أنزل عليه للرسالة "المدثر"، وأما "اقرأ" فهي أول ما أنزل عليه للنبوة، ولهذا عبَّر بعضهم (نُبِّأ النبي صلى الله عليه وسلم بالخمس الآيات الأوَل من سورة "اقرأ"، وأُرسل بالخمس الآيات الأوَل من سورة "المدثر").

الوجه الرابع: أن قول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما إنما هو باجتهاده، فيُقدَّم عليه ما روته عائشة الصديقة بنت الصديق –رضوان الله عليها وعلى أبيها.

الوجه الخامس: أن حديث عائشة رضي الله عنها منه ما يدل على أن "اقرأ" لم يسبقها وحي، حيث قال (ما أنا بقارئ) فإن هذا المنفي يدل على عدم نزول شيء قبله، فسُلِّم دليل الأول، وبذا يترجّح الرأي الأول وتظهر قوته.

=

❃ ❃ ❃ ❃

= قال الإمام النووي ﷺ في "شرح صحيح مسلم"(٢/ ٣٨٢): إن أول ما أنزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ضعيف بل باطل، والصواب: أن أول ما أنزل على الإطلاق ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، كما صرح به في حديث عائشة ﵂. وأما ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فكان نزولها بعد فترة الوحي، كما صرح به في رواية الزهري، عن أبي سلمة، عن جابر، والدلالة صريحة فيه في مواضع: منها قوله: وهو يحدث عن فترة الوحي -إلى أن قال- فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. ومنها قوله ﷺ: (فإذا الملك الذي جاءني بحراء) ثم قال: فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ومنها قوله: ثم تتابع الوحي يعني بعد فترته، فالصواب أن أول ما نزل ﴿اقْرَأْ﴾ وأن أول ما نزل بعد فترة الوحي ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ا.هـ

قول المؤلف ﵀: (ولهذا قال أهل العلم: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- نُبِّئ بـ"اقرأ" وأرسل بـ"المدثر"): التعبير الدقيق الذي ينبغي أن يُقال: نُبِّئ بالخمس الآيات الأولى من سورة "اقرأ" وأرسل بالخمس الآيات الأولى من سورة "المدثر".

انظر "البرهان"(١/ ٢٠٦-٢٠٨) "الإتقان"(١/ ٦٩-٧٢) "جمال القرّاء وكمال الإقراء"(١/ ٥-١١) "إفادة القارئ المبتدي بتلخيص كتاب البرهان للزركشي" لشيخنا يحيى الحجوري (ص:٩٤-٩٦) "السفير في أصول التفسير" لعبد الكريم سرور (ص:٣٥-٣٧) "مباحث في علوم القرآن"(ص:٦٥-٦٨) "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" للعلامة القسطلاني (١/ ٢٠١-٢٠٢) "فتح الباري"(١/ ٣٨) "أسباب النزول" للواحدي (ص:٥-١١) "زاد المعاد" لابن القيم (١/ ٨٤-٨٥) "الصحيح المسند من دلائل النبوة" للإمام الوادعي (ص:٣٧ فما بعد) "أصول في التفسير" للعلامة العثيمين (ص:٩-١٠).

(نُزُولُ القُرآن ابْتِدَائِي وَسَبَبِي)

ينقسم نزول القرآن إلى قسمين:

القسم الأول: ابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، وهو غالب آيات القرآن، ومنه قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة:٧٥]، الآيات، فإنها نزلت ابتداءً في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثير من المفسرين، وروّجها كثير من الوعّاظ، فضعيف لا صحة له [(١)].

(١) ذكر المؤلف أن نزول القرآن ينقسم إلى قسمين؛ نزول ابتدائي، ونزول سببي.

النزول الابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، وهو غالب آيات القرآن، ومنه قوله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَّ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة:٧٥]، الآيات، فإنها نزلت ابتداءً في بيان حال بعض المنافقين.

روى ابن أبي شيبة في "المصنف" برقم (٥٦٦٣)، وابن جرير الطبري في "تفسيره" (١/ ٥٨٣) وابن أبي حاتم في "تفسيره"(٦/ ١٨٤٦)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اعتبروا المنافق بثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وتلا هذه الآية ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَّ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة:٧٥]. وهو أثر صحيح.

قول المؤلف (وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثير من المفسرين، وروّجها كثير من الوعّاظ، فضعيف لا صحة له):

هذه القصة رواها البيهقي في "شعب الإيمان" رقم (٤٣٥٧) وذكرها الهيثمي في "مجمع الزوائد"(١١٠٤) وعزاها للطبراني.

وفيها: علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك. وانظر "الاستيعاب في بيان الأسباب"(٢/ ٢٩٨-٢٩٩).

وضعفها الإمام الألباني رحمه الله في "ضعيف الجامع"(٤١١٢)، هذا من حيث سندها.

وأما متنها: فهي منكرة جداً؛ إذ أن مضمونها عدم قبول توبة التائب.

=

القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدّم نزوله سبب يقتضيه [(١)] .

والسبب:

أ- إما سؤال يجيب الله عنه، مثل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩].

ب- أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير، مثل ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة:٦٥] الآيتين، نزلتا في رجل من المنافقين، قال في غزوة تبوك في

= قال العلامة العثيمين ﷺ في "شرح أصول في التفسير"(ص:١٥٤): ...والقصة مذكورة في التفسير، ولكنها لا صحة لها في ثعلبة بن حاطب، وذلك لأن الرجل مهما أذنب من الذنوب إذا تاب ورجع إلى الله فإن الله يقبل منه، فهذه القصة مخالفة لما عُلم بالضرورة من الدّين؛ وهو قبول توبة الله تعالى من التائبين، ولهذا ينبغي للإنسان إذا سمع مثل هذه القصص التي تخالف القرآن ينبغي أن يحررها ثم يبيّن ما فيها من البطلان ا.هـ

(١) النزول السَّببي: وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه.

والسبب من حيث اللغة: هو ما يتوصل به إلى الشيء. وقيل: كل شيء يُتوسل به إلى شيء غيره، والجمع: أسباب.

وهو يأتي لعدة معانٍ، منها:

١- الوصل والمودة: قال تعالى ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦].

٢- الحبل، قال تعالى ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج:١٥].

٣- الباب، قال تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغَ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَاطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

انظر "لسان العرب"(٦/ ١٣٩-١٤٠) "مفردات ألفاظ القرآن"(ص:٣٩١) "المحرر في أسباب النزول"(١/ ١-٢).

مجلس: ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه، فبلغ ذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– ونزل القرآن، فجاء الرجل يعتذر إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–، فيجيبه ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة:٦٥] (١).

ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه، مثل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١] الآيات (٢)

(١).

(١) أخرج الإمام ابن أبي حاتمٍ – في "تفسيره"(٦/ ١٨٢٩-١٨٣٠) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء!! فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن، قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ، تنكبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب!! ورسول الله ﷺ يقول «﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾».
صححه العلامة الوادعي رحمه الله في "الصحيح المسند من أسباب النزول"(ص:١٢٦) وقال: وله شاهد بسند حسن، عند ابن أبي حاتم في "تفسيره"(ج:٤ص:٦٤) من حديث كعب بن مالك ا.هـ

(٢) قال الإمام البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد من "صحيحه": باب قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيْعَاً بَصِيرَاً﴾ وقال الأعمش عن تميم عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١].

=

❋ ❋ ❋ ❋

= وقد جاء موصولاً عند الإمام أحمد في "المسند"(٦/ ٤٦) قال ﷺ: ثنا الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة ﵂ قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١].

وعند الإمام النسائي في "السنن" برقم (٣٤٦٠) وابن ماجه في "السنن" برقم (١٨٨) بيان لاسم المجادلة، ولفظ النسائي: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها، فكان يخفى عليَّ كلامها، فأنزل الله عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

(١) هذه أنواع النزول السببي، ذكرناها في الشرح بأوسع مما هاهنا.

❋مسألة: صيغة سبب النزول:

لأسباب نزول القرآن صيغتان، كما يذكر ذلك كثير من أهل العلم.

الصيغة الأولى: صريحة، وهي:

١- أن يقول الراوي: سبب نزول هذه الآية كذا، وهذه الصيغة لا أعلم لها مثالاً يثبت، على حسب اطلاعي، لكن العلماء يذكرونها في الباب، والله أعلم.

٢- أن يقول الراوي: أ-حدث كذا فنزل كذا. ب- فنزلت الآية. ج- فأنزل الله.

وهذه الصيغ: فنزل، فنزلت، فأنزل الله، كلها لها أدلتها، وهي كثيرة، ذكرنا بعضاً منها في الشرح.

الصيغة الثانية: الصيغة الغير صريحة، وهي:

كأن يقول الراوي: أحسب هذه الآية نزلت في كذا، أو يقول: نزلت هذه الآية في كذا، أو يقول: ما أحسب هذه الآية إلا نزلت في كذا، وذكرنا الأمثلة عليها في الشرح.

وهناك عدة مسائل متعلِّقة بهذا الباب ذكرتها في الشرح، والله الموفق.

(فَوَائِدُ مَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ)

معرفة أسباب النزول مهمة جداً؛ لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة، منها:

١- بيان أن القرآن نزل من الله تعالى، وذلك لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يُسأل عن شيء، فيتوقف عن الجواب أحياناً، حتى ينزل عليه الوحي، أو يخفى الأمر الواقع، فينزل الوحي مبيناً له.

مثال الأول: قوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥]. ففي صحيح البخاري، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن رجلاً من اليهود قال: يا أبا القاسم ما الروح؟ فسكت -وفي لفظ: فأمسك- النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلم يرد شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] الآية [١].

ومثال الثاني: قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، ففي صحيح البخاري، أن زيد بن أرقم رضي الله عنه سمع عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين يقول ذلك، يريد أنه الأعز ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه الأذل، فأخبر زيد عمه بذلك، فأخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم-، فدعا النبي -صلى الله عليه وسلم- زيداً فأخبره بما سمع، ثم أرسل إلى عبد الله بن أُبيّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدّقهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأنزل الله تصديق زيدٍ في هذه الآية [٢]

(١) رواه البخاري برقم (١٢٥) ومسلم برقم (٢٧٩٤).

(٢) رواه البخاري برقم (٤٩٠٠) ومسلم برقم (٢٧٧٢).

، فاستبان الأمر لرسول الله النبي –صلى الله عليه وسلم[(١)].

٢- بيان عناية الله تعالى برسوله –صلى الله عليه وسلم- في الدفاع عنه، مثال ذلك قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان:٣٢].

وكذلك آيات الإفك؛ فإنها دفاع عن فراش النبي –صلى الله عليه وسلم-، وتطهيراً له عمّا دنّسه به الأفاكون[(٢)].

٣- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم، وإزالة غمومهم، مثال ذلك: آية التيمم، ففي "صحيح البخاري" أنه ضاع عِقدٌ لعائشة رضي الله عنه، وهي مع النبي –صلى الله عليه وسلم- في بعض أسفاره، فأقام النبي –صلى الله عليه وسلم- لطلبه، وأقام الناس على غير ماء، فشكوا ذلك إلى أبي بكر، فذكر الحديث، وفيه: فأنزل الله آية التيمم، فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. والحديث في البخاري مطولاً[(٣)].

---

(١) انظر "شرح أصول التفسير"(ص:١٦٠).

(٢) آيات الإفك ودفاع الله تعالى لأمّ المؤمنين رضي الله عنها في سورة النور، من قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوَاْ أَلاَ تُحِبّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رّحِيمٌ﴾ [النور:١١-٢٢]. ولمعرفة القصة بتمامها راجع صحيح البخاري (٤٧٥٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) هو في البخاري برقم (٣٣٤) وفي عدة مواضع من صحيحه، ومسلم برقم (٣٦٧).

٤- فهم الآية على الوجه الصحيح[١]، مثال ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] أي: يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أن غاية أمر السعي بينهما أن يكون من قِسْم المباح، وفي صحيح البخاري، عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ إلى قوله ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨][٢]، وبهذا عُرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أمّا أصل حكم السعي فقد تبيّن بقوله ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾[٣].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) انظر "أسباب النزول" للواحدي (ص:٤و٨) "مجموع الفتاوى"(١٣/ ٣٣٩) "البرهان"(١/ ٢٢) "الإتقان" للسيوطي (١/ ٨٤) "الصحيح المسند من أسباب النزول" للوادعي (ص:٨).

(٢) رواه البخاري برقم (٤٤٩٦) ومسلم برقم (١٢٧٨)، وانظر شرح أصول في التفسير للمؤلف (ص:١٦٥).

(٣) وهناك فوائد أخرى ذكرناها في الشرح، والحمد لله.

(عُمُومُ اللفْظِ وَخُصُوصُ السَّبَبِ)

إذا نزلت الآية لسبب خاص، ولفظها عام كان حكمها شاملاً لسببها، ولكل ما يتناوله لفظها؛ لأن القرآن نزل تشريعاً عاماً لجميع الأمة، فكانت العبرة بعموم لفظه لا بخصوص سببه (١).

مثال ذلك: آيات اللعان، وهي قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ﴾ إلى قوله ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور:٦-٩]، ففي صحيح البخاري، من حديث ابن عباس رضي الله عنه، أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي -صلى الله عليه وسلم- بشريك بن سحماء، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- «البَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ» فقال هلال: والذي بعثك بالحق، إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ...﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِنْ كَانَ مِنَ

(١) وعلى هذا جمهور العلماء، وجاءت رواية عن الإمام مالك واختاره بعض الشافعية كالمزني وأبي بكر الدَّقاق وحكاه الجويني والآمدي عن الشافعي أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، والأقرب أن الشافعي لم يقل بهذا كما حرَّر ذلك الفخر الرازي.

والصحيح منهما: أن العبرة بعموم لفظ الآية، لا بخصوص سببها، وعليه جمهور العلماء من المتقدمين والمتأخرين.

روى البخاري برقم (٥٢٦) ومسلم برقم (٢٧٦٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فأنزل الله ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤] فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذا؟ قال: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِم».

انظر "مجموع الفتاوى"(١٣/ ٣٣٨-٣٣٩) (١٥/ ٣٦٤) "الإتقان"(١/ ٨٦) "القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن"(ص:١٨) "أضواء البيان"(٣/ ٢٥٠) "الصحيح المسند من أسباب النزول"(ص:١٦) "شرح أصول في التفسير"(ص:١٦٦).

الصَّادِقِينَ﴾ الحديث [(١)].

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: أن عويمر العجلاني جاء إلى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله رجلٌ وجد مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- «قَدْ أَنزَلَ اللهُ القُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ» فأمرهما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالملاعنة بما سمى الله في كتابه، فلاعنها. الحديث [(٢)].

فجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- حكم هذه الآيات شاملاً لهلال بن أمية وغيره [(٣)].

* * * *

(١) رواه البخاري برقم (٤٧٤٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري برقم (٤٧٤٥) ومسلم برقم (١٤٩٢)، عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) ذكرنا في الشرح اختلاف أهل العلم في من نزلت هذه الآية، وراجع: "فتح الباري"(٨/ ٥٧٠-٥٧٢) (٩/ ٥٥٧).

(المَكِيُّ وَالمَدَنِيُّ)

نزل القرآن على النبي –صلى الله عليه وسلم- مفرَّقاً في خلال ثلاث وعشرين سنة، قضى رسول الله –صلى الله عليه وسلم- أكثرها بمكة، قال الله تعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء:١٠٦]، ولذلك قسّم العلماء –رحمهم الله تعالى القرآن على قسمين: مكي ومدني [(١)] :

فالمكي: ما نزل على النبي –صلى الله عليه وسلم- قبل هجرته إلى المدينة.

والمدني: ما نزل على النبي –صلى الله عليه وسلم- بعد هجرته إلى المدينة [(٢)].

---

(١) هذا التقسيم صحيحٌ، وله أدِّلته، ومن أدلته ما تقدّم في حديث ابن عباس وعائشة وأنس رضي الله عنهم من أن النبي ﷺ بُعث وهو ابن أربعين سنة، فبقي في مكة ثلاث عشرة سنة، وفي المدينة عشر سنين.

(٢) اختلف العلماء في ضابط المكي والمدني على ثلاثة أقوالٍ، ذكرناها في الشرح، والصحيح: أن المكي: ما نزل قبل الهجرة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة، سواء نزل بمكة أو بالمدينة.
فالنظر في ذلك إلى زمن النزول، وذلك لأن هذا الاصطلاح ضابط وحاصر ومطّرد، إذ تنعدم على القول به الواسطة، ولأن هذا الاصطلاح والضابط الاعتماد عليه يقضي على معظم الخلافات التي أثيرت حول هذا الموضوع، ولأن القول به هو الذي درج عليه أهل العلم كثير منهم من الباحثين في هذا الشأن.
وقد رجَّح هذا القول جمعٌ من أهل العلم، منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن كثير، وابن عطية، وابن حجر العسقلاني، والألوسي، وابن عثيمين –رحمهم الله، وذكر الزركشي والسيوطي –رحمهما الله- أن هذا القول أشهر الأقوال، والله تعالى أعلم.
انظر "فضائل القرآن" للحافظ ابن كثير (ص:١١) "البرهان"(١/ ١٨٧-١٩١) "الإتقان"(١/ ٢٧-٢٩) "مناهل العرفان"(١/ ١٨٦-١٨٨) "شرح أصول في =

= التفسير"(ص:١٧٠) "المكي والمدني"(١/ ٤٤-٤٧) "مباحث في علوم القرآن"(ص:٦١-٦٢).

*مسألة: طريقة معرفة النزول المكي والمدني:

يعُرف المكي والمدني بواحد من طريقين:

الأول: النقل عن الصحابة رضي الله عنهم، فقد كانوا يشاهدون التنزيل، فيعرفون وقائعه وزمانه وأحواله.

الثاني: الاجتهاد عند عدم النقل، ويستند إلى خصائص المكي والمدني.

انظر "البرهان"(١/ ١٨٩-١٩١).

*مسألة: ضوابط النزول المكي والمدني:

أولاً: ضوابط النزول المكي:

١- كل سورة فيها ﴿كَلاَّ﴾ فهي مكية.

٢- كل سورة فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وليس فيها ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُواْ﴾ فهي مكية، وهذا الضابط ليس بمطرد.

٣- كل سورة فيها سجدة فهي مكية، ومنها سورة الحج.

٤- كل سورة في أولها حروف الهجاء فهي مكية، سوى البقرة وآل عمران، وفي سورة الرعد خلاف.

٥- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية، عدا سورة البقرة.

٦- كل سورة فيها قصص الأنبياء، وذكر الأمم الغابرة سوى أهل الكتاب فهي مكية.

ثانياً: ضوابط النزول المدني:

١- كل سورة فيها حدٌ أو فريضة فهي مدنية.

٢- كل سورة فيها أمرٌ بالجهاد ، وبيان لأحكامه فهي مدنية.

٣- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية، عدا سورة العنكبوت، في قوله تعالى ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١].

٤- كل سورة فيها ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُواْ﴾ فهي مدنية، وهذا الضابط ليس بمطرد كما سبق.

٥- كل سورة فيها مجاهدة أهل الكتاب فهي مدنية. =

وعلى هذا فقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] من القسم المدني، وإن كانت قد نزلت على النبي –صلى الله عليه وسلم– في حجة الوداع بعرفة، ففي صحيح البخاري، عن عمر رضي الله عنه أنه قال: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي –صلى الله عليه وسلم–، نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة (١).

ويتميّز القسم المكي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع:

أ- أما من حيث الأسلوب فهو:

١- الغالب في المكي قوة الأسلوب وشدة الخطاب؛ لأن غالب المخاطبين معرضون مستكبرون، ولا يليق بهم إلا ذلك، اقرأ سورتي "المدثر" و"القمر".

أما المدني: فالغالب في أسلوبه اللين، وسهولة الخطاب؛ لأن غالب المخاطبين مقبلون منقادون، اقرأ سورة "المائدة".

٢- الغالب في المكي قِصَر الآيات، وقوة المحاجَّة؛ لأن غالب المخاطبين معاندون مشاقون فخوطِبوا بما تقتضيه حالهم، اقرأ سورة "الطور".

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام مرسلة بدون محاجّة؛ لأن حالهم تقتضي ذلك، اقرأ آية الدّين في سورة "البقرة" (٢).

= انظر "البرهان"(١/ ١٨٨) "مجموع الفتاوى"(١٥/ ١٦٠) "جمال القُرَّاء"(١/ ٢٤٧) "مباحث في علوم القرآن"(ص:٦٣-٦٤) "المكي والمدني"(١/ ١٦١-١٦٧) "المحرر الوجيز"(١/ ١٤١).

(١) رواه البخاري برقم (٤٥) و(٤٤٠٧) و(٧٢٦٨) ومسلم برقم (٣٠١٧)..

(٢) انظر "شرح أصول في التفسير"(ص:١٧١-١٧٢).

ب- وأما من حيث الموضوع:

١- الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصاً ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث؛ لأن غالب المخاطبين ينكرون ذلك.

أما المدني: فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات؛ لأن المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات [١].

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني لاقتضاء الحال ذلك، حيث شُرع الجهاد، وظهر النفاق بخلاف القسم المكي [٢].

فوائد معرفة المدني والمكي:

معرفة المكي والمدني نوعٌ من أنواع علوم القرآن المهمة، وذلك لأن فيها فوائد منها:

١- ظهور بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، حيث يخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.

٢- ظهور حكمة التشريع في أسمى غاياته، حيث يتدرج شيئاً فشيئاً بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين، واستعدادهم للقبول والتنفيذ.

٣- تربية الدعاة إلى الله تعالى وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع من حيث المخاطبين، بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وتستعمل الشدة في موضعها، والسهولة في موضعها.

٤- تمييز الناسخ من المنسوخ، فيما وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط

---

(١) انظر "مجموع الفتاوى"(١٢/ ٣٣٥-٤٧٥) (١٥/ ١٦٠).

(٢) انظر "شرح أصول في التفسير"(ص:١٧٣).

النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية لتأخر المدنية عنها [1].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) انظر "شرح أصول في التفسير"(ص:١٧٤-١٧٥) "المكي والمدني في القرآن الكريم"(١/ ١٣٤-١٤١).

❊تنبيهٌ: ذكرنا مسائل كثيرة في هذا الباب تبعاً له في شرحنا لهذه الرسالة فلتراجع منه.

(الحِكْمَةُ مِنْ نُزُولِ القُرآن مُفَرَّقاً)

من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني، يتبين أنه نزل على النبي –صلى الله عليه وسلم– مفرقاً، ولنزوله على هذا الوجه حِكَمٌ كثيرة، منها:

١- تثبيت قلب النبي –صلى الله عليه وسلم– لقوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلكَ﴾ –يعني كذلك نزلناه مفرقاً– ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً * وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ ليصدّه الناس عن سبيل الله ﴿إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٢-٣٣].

٢- أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يقرأ عليهم شيئاً فشيئاً، لقوله تعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [الإسراء:١٠٦].

٣- تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه، حيث يتشوق الناس بلهف وشَوْق إلى نزول الآية، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها، كما في آيات الإفك واللعان.

٤- التدرج في التشريع، حتى يصل إلى درجة الكمال، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه، وألِفُوه، وكان من الصعب عليهم أن يُجابَهوا بالمنع منه منعاً باتّاً، فنزل في شأنه أولاً قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، فكان في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبول تحريمه، حيث إن العقل يقتضي أن لا يمارس شيئاً إثمه أكبر من نفعه.

ثم نزل ثانياً قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣] فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات، ثم نزل ثالثاً قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ

الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهَّ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٠-٩٢]، فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعاً باتّاً في جميع الأوقات، بعد أن هُيئت النفوس، ثم مرنت على المنع منه في بعض الأوقات (١)

.

* * * *

(١) يسَّر الله لنا شرح هذه الحِكَمِ في شرحنا، ولله الحمد.

(تَرْتِيبُ القُرْآنِ)

ترتيب القرآن: تلاوته تالياً بعضه بعضاً حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور.

وهو ثلاثة أنواع (١):

النوع الأول: ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا ثابت بالنص والإجماع، ولا نعلم مخالفاً في وجوبه وتحريم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ (لله الحمد رب العالمين) بدلاً من ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:١] (٢):

النوع الثاني: ترتيب الآيات بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة، وهذا

---

(١) بل هو أربعة أنواع كما ذكر هو رحمه الله في "شرح أصول في التفسير"(ص:١٨٣-١٨٤) و"الشرح الممتع"(٣/ ١١٠).
وهذه الأنواع على الترتيب، هي:
١- ترتيب الحروف ٢-ترتيب الكلمات ٣- ترتيب الآيات ٤- ترتيب السور.

(٢) أولاً: ترتيب الحروف: هذا الترتيب واجب بالنص والإجماع، وتحرم مخالفته، فلا يجوز أن يقرأ (المحد لله) بدلاً من ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾؛ فإن هذا يعتبر تحريفاً، وتبطل به الصلاة بالإجماع.
النوع الثاني: ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية، وهذا الترتيب ثابت بالنص، والأدلة على ذلك كثيرة جداً، ولا خلاف في ذلك كما في "حاشية مقدمة التفسير" لابن القاسم النجدي رحمه الله (ص:٤٣-٤٤).
فلا يجوز أن يقرأ (لله الحمد رب العالمين) بدلاً من ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:١]، ولا تصح صلاة من فعل ذلك بالإجماع.

ثابت بالنص والإجماع [١]، وهو واجب على القول الراجح، وتحرم مخالفته، ولا يجوز أن يقرأ (مالك يوم الدين، الرحمن الرحيم) بدلاً من ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٢-٣] [٢].

ففي صحيح البخاري، أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان ﷺ في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠] قد نسختها الآية الأخرى، يعني قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، وهذه قبلها في التلاوة، قال: فلم تكتبها؟ فقال عثمان ﷺ: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه [٣].

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي، من حديث عثمان ﷺ، أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه

---

(١) أمَّا النصُّ؛ فقد ذكره المؤلف ﷺ، وذكرنا في الشرح بعض الأدلة أيضاً. وأما الإجماع؛ فقد نقله أكثر من واحد من أهل العلم، وانظر "البرهان"(١/ ٢٥٦) و"الإتقان"(١/ ١٧١).

(٢) الصلاة والقراءة على غير ترتيب الآيات: لا تجوز، وهو قول الجمهور وهو الراجح، وقد خالف صاحب "المحرر" من الحنابلة وغيره، وقالوا: بالكراهة لا التحريم، وهو قول ليس بصحيح، والصحيح القول الأول.

ومن هنا نعلم أنه ليس ثَمَّ اتفاق في المسألة، لأن شيخ الإسلام ينقل الاتفاق على التحريم كما في "إمتاع ذوي العرفان"(ص:١٦٣).

وانظر "مجموع الفتاوى"(١٣/ ٣٩٦) و"(٢١/ ٤١٠-٤١١) "الفتاوى الكبرى" لابن تيمية (١/ ٣٧٧) "الفروع" لابن مفلح (١/ ٤٢١).

(٣) رواه البخاري برقم (٤٥٣٠) و(٤٥٣٦).

الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول (ضعوا هذه الآيات في السور التي يُذكر فيها كذا وكذا)[١].

النوع الثالث: ترتيب السور بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجباً، وفي صحيح مسلم، عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه صلى مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ذات ليلة، فقرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران[٢].

وروى البخاري تعليقاً عن الأحنف: أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أنه صلى مع عمر بن الخطاب الصبح بهما[٣].[٤]

(١) أخرجه أحمد برقم (٣٩٩) وأبو داود برقم (٧٨٦) والنسائي في "الكبرى" برقم (٨٠٠٧) والترمذي برقم (٣٠٨٦)، من حديث عثمان رضي الله عنه، وفي إسناده: يزيد الفارسي: قال الحافظ رحمه الله: مقبول، بمعنى أنه إن توبع وإلا فليّن. انظر "التقريب"(٧٨٤٩)، ويُنظر هل له متابع، وقد ضعف هذا الحديث العلامة الألباني رحمه الله في "ضعيف أبي داود"(١٦٨).

(٢) رواه مسلم برقم (٧٧٢) وأحمد (٥/ ٣٩٨).

(٣) رواه البخاري تعليقاً في "صحيحه" كتاب الأذان: باب الجمع بين السورتين في الركعة...، عن الأحنف رحمه الله: أنه قرأ في الأولى بالكهف، وفي الثانية بيوسف أو يونس، وذكر أنه صلّى مع عمر رضي الله عنهما الصبح بهما.

قال الحافظ رحمه الله في "الفتح"(٢/ ٣٣٣): وصله أبو جعفر الفريابي في "كتاب الصلاة" له، من طريق عبد الله بن شقشق، قال: صلّى الأحنف -فذكره-، وقال: في الثانية يونس، ولم يشك، قال: وزعم أنه صلى خلف عمر كذلك. ومن هذا الوجه أخرجه أبو نعيم في "المستخرج" ا.هـ

(٤) ترتيب السور بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف، اختلف أهل العلم في ترتيب السور هل هو أمر توقيفي أم اجتهادي؟

=

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [١]: تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة، ولهذا تنوعت مصاحف الصحابة رضي الله عنهم في كتابتها، لكن لمّا اتفقوا على المصحف في زمن عثمان رضي الله عنه، صار هذا مما سنّه الخلفاء الراشدون، وقد دلّ الحديث على أن لهم سنة يجب اتباعها [٢] [٣].

= على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ترتيب السور أمر توقيفي، وهذا قال به طائفة من السلف.

القول الثاني: ترتيب سور القرآن أمرٌ اجتهادي، وهو قول جمهور العلماء.

القول الثالث: منه ما هو توقيفي مما قرأه النبي ﷺ مرتباً، ومنه ما هو اجتهادي وهو الأكثر، ذكر هذا الشيخ العثيمين رحمه الله.

ذكرناها مع مناقشة كلِّ قول بتوسّعٍ في الشرح.

(١) انظر "الفروع" لابن مفلح (١/ ٤٢١-٤٢٢).

(٢) يشير إلى حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، الذي رواه الإمام أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم، قال رسول الله رضي الله عنه (أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضو عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة) وهو حديث صحيح.

(٤) انظر "البرهان في علوم القرآن"(١/ ٢٥٧-٢٦٣) "فتح الباري"(٩/ ٤٩-٥٤) "مناهل العرفان"(١/ ٣٥١) "شرح مقدمة شيخ الإسلام في التفسير" للشثري (ص:٦٧-٧١) "قلائد الجوهر والتيجان" لأبي عمرو الحجوري (ص:٨١-٨٥) "شرح أصول في التفسير"(ص:١٨٢-١٨٥) "أضواء البيان في تاريخ القرآن" لصابر حسن (ص:٦٥-٧٠) "المحرر في علوم القرآن" لمساعد الطيار (ص:١٩٧-٢٠٤) "المبدع شرح المقنع" لا بن مفلح (١/ ٤٨٥-٤٨٦) "الفروع" لا بن مفلح (١/ ٤٢١-٤٢٢) "الشرح الممتع"(٣/ ١١١-١١٣) "الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني" (١/ ٢٦٠).

(كِتَابَةُ القُرْآنِ وَجَمْعِهِ)

لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم- [(١)]، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة، لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة [(٢)]، ولذلك لم يجمع في مصحف، بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها

(١) في هذه المرحلة الأولى كان نبينا الكريم ﷺ يُقرئُ القرآن الصحابةَ، وجعل له كتَّاباً يكتبونه، فكانت تنزل الآية فيكتبها الكتَّاب، من هؤلاء الكتَّاب: الخلفاء الأربعة، ومعاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت، وأُبي بن كعب، وخالد بن الوليد، وثابت بن قيس، وغيرهم رضي الله عنهم.
هؤلاء كانوا كتَّاباً للوحي، وكانوا يكتبون بإشارة النبي ﷺ وتعليمه، كيف يكتبون الآيات والسور، وكيف يضعونها...، فالقرآن كان على هذا التأليف والجمع في زمن رسول الله ﷺ.
انظر "البرهان"(١/ ٢٣٥).
ولم يُجمع القرآن في عهد النبي ﷺ لِمَا كان يترقبه من نزول ناسخ لبعضه، فلمّا انقضى ذلك السبب برفعه –عليه الصلاة والسلام- إلى الرفيق الأعلى؛ أَلْهَم اللهُ تعالى الخلفاء الراشدين بذلك، وفاءً بوعده الصادق بضمان حفظه بقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] ا.هـ "الفرقان" لابن الخطيب (ص:٣٦).
انظر "البرهان"(١/ ٢٣٥) "الإتقان"(١/ ١٦٣)، وراجع كلاماً طيباً لشيخ الإسلام رحمه الله في "اقتضاء الصراط المستقيم"(ص:٢٧٧) كما في "إمتاع ذوي العرفان بما اشتملت عليه كتب شيخ الإسلام من علوم القرآن"(ص:١٤٧) وانظر "منهاج السنة النبوية"(١/ ٨٣) و"مجموع الفتاوى"(٢١/ ٣١٧-٣١٨).

(٢) قال العلامة العثيمين رحمه الله: ...لأن الحاجة أمّ الاختراع، فإذا احتاج الناس إلى الحفظ، صارت حافظتهم قويّة؛ لأنهم يعتمدون عليها ا.هـ من "شرح أصول في التفسير"(ص:١٨٦).

فيما تيسّر له من عُسُب النخل، ورقاع الجلود، ولخاف الحجارة، وكِسَرِ الأكتاف [١]، وكـان القرّاء عدداً كبيراً.

(١) روى الإمام البخاري برقم (٤٩٨٦)، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه في قصة جمع الآيات والسور، وفيه قال زيدٌ: فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال.

وروى الإمام البخاري برقم (٢٨٣١) ومسلم برقم (١٨٩٨)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً فجاء بكتف فكتبها، وشكا ابن أم مكتوم ضرارته، فنزلت ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.

وجاء عند البخاري برقم (٤٩٩٠)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم «ادْعُ لِي زَيْدًا وَلْيَجِيء بِاللَّوْحِ وَالدَّوَاةِ وَالْكَتِفِ أَوْ الْكَتِفِ وَالدَّوَاةِ ... » الحديث.

عُسُب النخل: جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض، وقيل: العسيب طرف الجريدة العريض الذي لم ينبت عليه الخوص وهو السعف. "فتح الباري"(٩/ ١٩) "النهاية" لابن الأثير (ص:٦١٤).

رقاع الجلود: رقعة الجلد، يأخذها مدبوغة فيكتب فيها ا.هـ "شرح أصول في التفسير"(ص:١٨٧).

لخاف الحجارة: بكسر اللام، جمع لخفة، وهي صفائح الحجارة الرقاق. "فتح الباري"(٩/ ١٩) "النهاية" لابن الأثير (ص:٨٣٢).

كِسَر الأكتاف: عَظْمٌ عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدّواب، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم ا.هـ

قال الحافظ رحمه الله: كانوا إذا جفَّ كتبوا فيه ا.هـ "فتح الباري"(٩/ ١٩) "النهاية" لابن الأثير (ص:٧٩٢).

ففي صحيح البخاري [١]، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي –صلى الله عليه وسلم– بعث سبعين رجلاً يُقال لهم: القُرَّاء، فعرض لهم حيان من بني سُليم: رعل وذكوان عند بئر معونة فقتلوهم.

وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء رضي الله عنهم. [٢]

المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشر من الهجرة، وسببه أنه قُتل في وقعة اليمامة عددٌ كبير من القراء، منهم سالم مولى أبي حذيفة، أحد من أمر النبي –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– بأخذ القرآن منهم، فأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمعه لئلا يضيع.

ففي صحيح البخاري [٣]: أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، فتوقف تورعاً، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت، فأتاه وعنده عمر فقال له أبو بكر: إنك رجلٌ شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– فتتبع القرآن فاجمعه، قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال، فكانت

---

(١) البخاري برقم (٤٠٩٠).

(٢) خلاصة هذه المرحلة:

١- الاعتماد في الحفظ كثيراً، لقلة وسائل الكتابة.

٢- كان يُكتب في عسب النخل، ورقاع الجلود، ولخاف الحجارة، وكسر الأكتاف.

٣- لم يُجمع في الصحف، ولا في مصحف واحد.

(٣) البخاري برقم (٤٩٨٦).

الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياتَه، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

رواه البخاري مطولاً.[(١)]

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدّوه من حسناته، حتى قال علي رضي الله عنه: أعظم الناس في المصاحف أجراً: أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله.[(٢)]

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة

(١) كان جمع أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشر من الهجرة النبوية، كما في "تاريخ الإسلام" للذهبي و"البداية والنهاية" لابن كثير.

خلاصة هذه المرحلة:

١- جَمَعَ أبو بكر رضي الله عنه القرآن في صحف.
٢- كان الجمع بإشارة من عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
٣- سبب الجمع هو مقتل عدد كبير من القرّاء في وقعة اليمامة.
٤- تولى الجمع زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب بأمرٍ من أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
٥- تتبع زيد بن ثابت القرآن وجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال.
٦- التحري في الجمع، فلا يقبل من أحدٍ حتى يشهد شهيدان، الحفظ والسماع وأُضيفت الكتابة أيضاً.
٧- بقاء الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم انتقلت إلى عمر حتى توفاه الله، ثم انتقلت إلى حفصة حتى توفاها الله، ثم انتقلت إلى ابن عمر رضي الله عنهم، كما بيّنّا ذلك بأدلته في الشرح.

انظر "الفتح"(٩/ ١٤- وما بعد) "الإتقان"(١/ ١٦١- وما بعد).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف"(١٠/ ٥٤٤) وابن أبي داود في "المصاحف"(ص:٤٨فما بعد) وأبو عبيد في "فضائل القرآن"(ص:٢٨٠-٢٨١) بلفظ: رحم الله أبا بكر هو أول من جمع بين اللوحين. وإسناده حسن.

والعشرين، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة رضي الله عنهم فخيفت الفتنة، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تُجمع هذه الصحُف في مصحف واحد؛ لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا.

ففي صحيح البخاري [(١)]: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان من فتح أرمينية وأذربيجان، وقد أفزعه اختلافهم في القراءة، فقال: يا أمير المؤمنين، أدْرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، ففعلت، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

وكان زيد بن ثابت أنصارياً، والثلاثة قرشيين، وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أُفُق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق. [(٢)]

---

(١) البخاري برقم (٤٩٧٨).

(٢) خلاصة هذه المرحلة:

١- جمع عثمان رضي الله عنه القرآن في مصحف واحد.
٢- سببه اختلاف الناس في القراءة فخشي بعد ذلك الاختلاف كاليهود والنصارى.
٣- المشير إلى الجمع هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .
٤- الذين جمعوا القرآن في المصحف بأمر من عثمان هم: زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

=

وقد فعل عثمان ﵁ هذا بعد أن استشار الصحابة ﵃، لما روى ابن أبي داود [(١)]، عن علي ﵁ أنه قال: والله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا، قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا: فنِعْم ما رأيت.

وقال مصعب بن سعد: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد [(٢)]، وهو من حسنات أمير المؤمنين عثمان

=

٥- إحراق عثمان ﵁ للصحف، بعد مشاورته الصحابة، وقد وافقوه على ذلك، وجُعلت من حسناته.

٦- نسخ عثمان ﵁ المصحف إلى عدة مصاحف وإرسالها إلى الآفاق.

٧- بقية الصحُف التي كانت عند حفصة، أخذها مروان بعد موتها من ابن عمر بعزيمة، وغسلها، وبقي الناس إلى زماننا هذا على المصحف العثماني، لله الحمد والمنّة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس ﵄ أن جبريل كان يعارض النبي ﷺ في كلّ عام مرّة، فلمّا كان العام الذي قُبِضَ فيه عارضه به مرتين. والعرضة الأخيرة: هي قراءة زيد بن ثابت وغيره، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي بكتابتها في المصاحف، ثم أمر عثمان في خلافته بكتابتها في المصاحف، وإرسالها إلى الأمصار، وجمع الناس عليها باتفاق من الصحابة عليّ وغيره ا.هـ

بسط الكلام في ذلك موجودٌ في الشرح بأدلته، ولله الحمد.

وانظر "أخبار المدينة"(٣/ ٢٢٠) "المصاحف"(ص:٩٤-٩٥) "الفتح"(٩/ ٢٤- وما بعد) "الإتقان"(١) "مباحث في علوم القرآن"(ص:١٣٠١٣٤) "المدخل لدراسة القرآن الكريم"(ص:٢٥٢) "شرح أصول في التفسير"(ص:١٩٠).

(١) في "المصاحف"، وهو أثرٌ صحيحٌ.

(٢) أخرجه ابن أبي داود في "المصاحف"(رقم:٤١) ونصه: قال: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، ولم ينكر ذلك منهم أحد.

=

رضي الله عنه التي وافقه المسلمون عليها، وكانت مُكَملة لجمع خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر رضي الله عنه.

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي الله عنهما: أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر تقييد القرآن كله مجموعاً في مصحف، حتى لا يضيع منه شيء دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد؛ وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

وأمّا الغرض من جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فهو تقييد القرآن كله مجموعاً في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه؛ لظهور الأثر المُخيف باختلاف القراءات [1].

وقد ظهرت نتائج هذا الجمع حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة، واتفاق الكلمة، وحلول الأُلفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرّق الأمة، واختلاف الكلمة، وفشو البغضاء والعداوة.

وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متفقاً عليه بين المسلمين متواتراً بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبث به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين، فلله الحمد رب

= وهو أثر ثابت، ولا تضرّ عنعنة ابن إسحاق؛ فإن الراوي عنه شعبة، وقد قال شعبة: كفيتكم تدليس ثلاثة، وذكر منهم: ابن إسحاق، فسلمنا تدليسه.

وروى ابن أبي داود –أيضاً– في "المصاحف"(رقم:٤٤)، عن عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله أنه قال: خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر؛ صبره نفسه حتى قُتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف.

(١) انظر "الفتح"(٩/ ٢٨).

السماوات ورب الأرض رب العالمين [١].

* * * *

(١) انظر "الجواب الصحيح لمن بدَّل دينَ المسيح" لشيخ الإسلام (٣/ ١٣-١٧).

(التَّفْسِيرُ)

التفسير لغة: مِن الفَسْر، وهو: الكَشْف عن المغطَّى [(١)].

وفي الاصطلاح: بيان معاني القرآن الكريم [(٢)].

وتعلّم التفسير واجب لقوله تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]، ولقوله تعالى ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

---

(١) التفسير لغةً: من الفَسْر، وهو الكشف عن المغطَّى.

وهو على وزن فعيل من الفسر، وهو يدل على معنى البيان، والكشف، والإظهار، والإيضاح، والتفصيل، ومنه قوله تعالى ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

انظر "البرهان"(٢/ ١٤٧) "الإتقان"(١/ ٣٣) "مقاييس اللغة"(٢/ ٣٥٥) "مقدمة جامع التفسير"(ص:٤٧) "أسباب الخطأ في التفسير" لطاهر محمود (١/ ٤٤-٤٥).

(٢) هذا هو أرجح التعاريف لأمور:

١- أن هذا المعنى منطلق من الأصل اللغوي لكلمة التفسير، وهو البيان والكشف والإيضاح.

٢- أن هذا المعنى مشترك في جميع تعريفات أهل العلم الاصطلاحية نصاً أو لزوماً، ولا يختلفون في ذلك.

٣- أن هذا القدر من التعريف هو الذي دلَّ عليه الواقع العملي عند المفسرين "بيان المعنى" سواء كان بيان اللفظة أو الجملة أو المعنى العام للآية أو السورة.

انظر "البرهان"(٢/ ١٤٨) "الإتقان"(١/ ٣٣) "الكشف والبيان" للثعلبي (١/ ١٧-١٨) "زاد المسير" لابن الجوزي (١/ ٢٩) "التسهيل لعلوم التنزيل" لابن جُزيّ (١/ ١٥) "البحر المحيط" لأبي حيان (١/ ١٢١) "الصواعق المرسلة"(١/ ٢١٥) "التعريفات" للجرجاني (ص:٦٧) "التحرير والتنوير" لابن عاشور (١/ ١١) "مناهل العرفان"(٢/ ٤) "استدراكات السلف" للزهراني (ص:٢٨-٣٣).

[محمد:٢٤].

وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بـيّن أن الحكمـة مـن إنـزال هـذا القـرآن المبارك؛ أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها.

والتدبّر: هو التأمل في الألفاظ للوصـول إلى معانيهـا، فـإذا لم يكـن ذلـك، فاتـت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لهـا؛ ولأنـه لا يمكـن الاتعـاظ بـما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدلالة من الآية الثانية أن الله تعالى وبَّخ أولئك الذين لا يتـدبرون القـرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها [1].

---

(١) حكم تعلُّم التفسير كحكم تعلّم العلوم الشرعية من علوم الفقه والحديث، فيه تفصيل، ذكره أهل العلم، فمنه ما هو علمٌ عيني، ومنه ما هو علمٌ كفائي.

أما العيني: فهو ما لا يسع المكلف جهله، كالشهادتين ومعرفة أركان الإسلام والإيمان، ومعرفة أنواع العبادات والمعاملات الشرعية الواجبة عليه. انظر "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي (١/ ١٧٣).

وأمّا الكفائي: فهو ما كان تعلّمه قدر زائد على العيني، وليس له متعلق بعين المكلف، ولا يتعلق بصحة ولا بطلان. انظر "كتاب العلم" للنووي (ص:٨٤).

قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله في "جامع بيان العلم وفضله"(١/ ٥٦-٥٧-٥٨-٥٩): قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعيّن على كل امرئٍ في خاصة نفسه، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع...-ثم ذكر رحمه الله- أمثلة على العيني إلى أن قال-: ثم سائر العلم وطلبه والتفقه فيه وتعليم الناس إياه وفتواهم به في مصالح دينهم ودنياهم، والحكم به بينهم فرض على الكفاية، يلزم الجميع فرضه عن الباقين بموضعه، لا خلاف بين العلماء في ذلك، وحجتهم فيه قول الله عز وجل ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٢٢] ا.هـ

=

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به، فإن العمل بما لا يُعرف معناه غير ممكن.

قال أبو عبد الرحمن السلمي[١]: حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي -صلى الله عليه وسلم- عشر آيات، لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل؛ قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً[٢].

وقال شيخ الإسلام[٣]: والعادة تمنع أن يقرأ قومٌ كتاباً في فن من العلم، كالطب والحساب، ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم.

ويجب على أهل العلم أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المشافهة لقوله تعالى

= وعليه يتنزل قول السيوطي رحمه الله في "الإتقان في علوم القرآن"(٢/ ٤٩٥): وقد أجمع العلماء أن التفسير من فروض الكفايات، وأجلّ العلوم الثلاثة الشرعية ا.هـ وانظر "شرح أصول في التفسير" للمؤلف (ص:١٩٤).

(١) التابعي الكبير الإمام: عبد الله بن حبيب بن ربيعة السُلمي الكوفي، توفي سنة:١٠٥هـ، وهناك رجلُ آخر وافق لقبُه لقبَ هذا، وكنيتُه كنيتَه، واسمه: محمد بن الحسين بن موسى الأزدي، صاحب كتاب "حقائق التفسير" على الطريقة الصوفية، وهو صوفيٌّ ضالٌّ، توفي سنة:٤١٢هـ

(٢) أخرجه الحاكم في "المستدرك"(١/ ٥٥٧) والبيهقي في "الشعب"(٢/ ٣٣٠)، وهو حسنٌ، إلا أن ذكر الأسماء فيه لم يثبت كما رجّح ذلك الإمام الدارقطني رحمه الله في "العلل" (٣/ ٦٠).

(٣) "مجموع فتاوى شيخ الإسلام"(١٣/ ٣٣٢).

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن مما أخذ اللهُ العهد على أهل العلم ببيانه.

والغرض من تعلّم التفسير هو الوصول إلى الغايات الحميـدة والثمـرات الجليلـة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله؛ ليُعبَـدَ اللهُ بها على بصيرة.



(الوَاجِبُ عَلَى المُسلِمِ فِي تَفسِير القُرآن)

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يُشْعِرَ نفسه حين يُفسِّر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه، فيكون معظماً لهذه الشهادة خائفاً من أن يقول على الله بلا علمٍ، فيقع فيما حرَّم الله، فيُخْزى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، وقال تعالى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠][(١)].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) الكلام في التفسير ليس بالأمر السهل، وقد ذكرنا عظم الكلام في دين الله، وخطره إذا كان بدون علمٍ في شرحنا، وذكرنا أيضاً شروط الإقدام على التفسير، من أهمها:
- أن يكون المفسِّر عالماً راسخاً فيه. - أن يكون المفسِّر دقيق الفهم. - أن يكون المفسِّر عالماً بلغة العرب، بما يستطيع به الفهم والتفسير. - أن يطلب المفسِّر التفسير من الكتاب والسنة؛ فإن لم يجد فمن آثار الصحابة؛ فإن لم يجد فمن آثار التابعين؛ فإن لم يجد فيرجع إلى اللغة العربية. - أن يكون المفسِّر آخذاً العلم من العلماء الناصحين علماء أهل السنة والجماعة. - أن يكون المفسِّر على السنة والمنهج السلفي، وتتبع السنن واقتفاء الآثار، مع بعده عن البدع والأهواء والحزبيات. - أن يكون المفسِّر صاحب نسك وخشية لله جل وعلا. - أن يكون المفسِّر راسخ القدم عند الفتن، ومواطن الشّبه، وعارفاً للفتنة عند قدومها، ومحذراً الناس منها. - أن يكون المفسِّر معروفاً لدى الناس بالصلاح والخير والثناء الحسن. - أن يكون المفسِّر مشهوداً له بالعلم والاجتهاد. - أن يكون المفسِّر مصان العلم عن تسخيره لحطام دنيوي أو مآرب سيئة، من منصب ورياسة دنيوية، وشهرة وسمعة ورياء. - أن يكون المفسِّر عاملاً بعلمه.

(المَرجِعُ فِي تَفسِير القُرآن [١])

يرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أولاً: كلام الله تعالى: فيفسَّر القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به.

ولذلك أمثلة منها:

١- قوله تعالى ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِّ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، فقد فسَّر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣].

٢- قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقِ﴾ [الطارق:١]، فقد فسّر الطارق بقوله في الآية الثانية ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣].

٣- قوله تعالى ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠]، فقد فسّر دحاها بقوله في الآيتين بعدها ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات:٣١-٣٢] [٢].

ثانياً: كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيفسَّر القرآن بالسنة؛ لأن رسول

---

(١) يسَّر الله لي – وله الحمد والمنَّة- إشباع هذا الموضوع في رسالة مستقلة بعنوان (الهداية إلى معرفة طرق التفسير بالاجتهاد والرواية).

(٢) هذا أوَّل مرجع من مراجع التفسير؛ تفسير القرآن بالقرآن، وهو أشرف مراجع التفسير وأجلها بالإجماع. انظر "مقدمة في أصول التفسير"(ص:٩٧-٩٨) شرح شيخنا يحيى الحجوري – حفظه الله، و"أضواء البيان"(١/ ٥).

الله –صلى الله عليه وسلم– مبلّغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى بكلامه [(١)].

ولذلك أمثلة منها:

١ – قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فقد فسَّر النبي –صلى الله عليه وسلم– الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم صريحاً من حديث أبي موسى، وأُبيّ بن كعب، ورواه ابن جرير من حديث كعب بن عجرة [(٢)]، وفي صحيح مسلم عن صهيب ابن سنان، عن النبي –صلى الله عليه وسلم– في حديث قال فيه «فَيَكْشِفُ الحِجَابَ فَما أُعْطُوا شَيئَاً أَحَبَّ إِلَيهِمْ منَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ» ثم تلا

---

(١) انظر "مقدمة في أصول التفسير"(ص:٩٨).

(٢) أما حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، فرواه ابن جرير رحمه الله في "تفسيره"(١٢/ ١٥٨) وفي إسناده: أبان بن أبي عياش، وهو متروك. "التقريب"(١٤٣).

وخالف أبو بكر الهذلي أبانَ بن أبي عياش، فرواه عن أبي موسى الأشعري موقوفاً عليه، كما في "تفسير ابن جرير"(١٢/ ١٥٨) و"تفسير ابن أبي حاتم"(رقم:١٠٣٤١).

وأبو بكر الهذلي، اسمه: سُلمي بن عبد الله، وهو أخباري متروك الحديث. "التقريب"(٨٠٥٩)، فهذا سندٌ ضعيف جداً.

وأمّا حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه، فرواه ابن جرير في "تفسيره"(١٢/ ١٦٢)، وفي إسناده: رجلٌ مبهم. فهذا سند ضعيف جداً.

وأمّا حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه، فهو في "تفسير ابن جرير"(١٢/ ١٦١) وفي إسناده: محمد بن حميد الرازي، شيخ ابن جرير، وهو ضعيف، وبعضهم كذّبه. "تهذيب الكمال"(٢٥/ ٩٧-١٠٨) "التقريب"(٥٨٧١).

وفيه: إبراهيم بن المختار، وهو ضعيف الحفظ. "التقريب"(٢٤٧).

وفيه انقطاع بين عطاء وكعب بن عجرة. فهذا سند ضعيف جداً.

هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (١).

٢- قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فقد فسّر النبي -صلى الله عليه وسلم- القوة بالرمي. رواه مسلم وغيره، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه (٢).

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم في "صحيحه" برقم (١٨١)، وفيه: ثم تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾.
هذه الزيادة في الحديث مختلف فيها:
رواها حماد بن سلمة عن ثابت مرفوعة وموصولة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
وخالفه جمعٌ من الرواة فرووها مقطوعة موقوفة على عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهم:
حماد بن زيد، عند ابن جرير الطبري رحمه الله في "تفسيره"(١٢/ ١٥٨-١٥٩) وغيره.
ومعمر بن راشد، عند ابن جرير الطبري رحمه الله في "تفسيره"(١٢/ ١٥٩).
وسليمان بن المغير، عند ابن جرير الطبري رحمه الله في "تفسيره"(١٢/ ١٥٩).
وحماد بن واقد، كما في "شرح مسلم" للنووي (٣/ ١٩-٢٠). ورجَّح روايتهم الحافظ المزي والنووي والشيخ الوادعي -رحمهم الله.
انظر "تحفة الأشراف"(٤/ ١٩٨) "الإلزامات والتتبع" للدارقطني (ص:٣٣٨-٣٣٩) تعليق: الإمام الوادعي، وأما الإمام ابن القيّم رحمه الله فيقول في كتابه "حادي الأرواح"(ص:٢١٩): هذا الحديث رواه الأئمة عن حمّاد وتلقّوه عن نبيهم بالقبول والتصديق ا.هـ

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٩١٧).

ثالثاً: كلام الصحابة رضي الله عنهم، لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق، وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب [1].

ولذلك أمثلة كثيرة جداً منها:

١- قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء:٤٣]، فقد صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسَّر الملامسة بالجماع [2].

---

(١) يُرجع إلى تفسير الصحابة لأمورٍ:

١- لأن القرآن نزل بلغتهم. ٢- لأنهم شاهدوا النزول وعاصروه. ٣- لأنهم أعرف الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم طلابه المبلغون عنه. ٤- لما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح. ٥- لأنهم أسلم الناس عن الأهواء والبدع. ٦- لأنهم أطهر الناس بعد الأنبياء من المعاصي والذنوب والمخالفات. ٧- لأنهم أشد الناس بعد الأنبياء عملاً بالعلم. ٨- لأنهم أهل هدى وصلاح.

وقد أجمع العلماء على عدالتهم، وعلى أنهم يُعتبرون المرجع الثالث بعد الكتاب والسنة.

انظر "العدة في أصول الفقه"(٣/ ٧٢١-٧٢٤) "مقدمة ابن الصلاح" مع "التقييد والإيضاح" للعراقي (ص:٢٨٦-٢٨٧) "فضل علم السلف على علم الخلف" لابن رجب (ص:١٠٠-١٠١) "مقدمة في أصول التفسير"(ص:١٠٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في "تفسيره"(٧/ ٦٣-٦٧)، وإسناده صحيحٌ.

*مسألة: أقوال الصحابة رضي الله عنهم على ثلاث حالات:

الأولى: ما كان له حكم الرفع، وهذا على حالتين:

١- إذا روى في أسباب النزول يكون حكمه حكم الرفع.

=

رابعاً: كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة ﭫ؛ لأن التابعين

٢- إذا قال شيئاً مما لا مجال للرأي فيه، كالإخبار عن المغيبات وما يحصل يوم القيامة؛ لأنه ما سيقول ذلك عن هوى –مَعَاذ الله.

الثاني: ما كان عن استدلال ورجوع إلى الكتاب والسنة؛ أي: يقول الصحابي قولاً لو نظرنا فيه لوجدنا له أصلاً من الكتاب أو السنة؛ فهذا يُقبل ولا يجوز ردّه.

الثالثة: ما كان موقوفاً عليهم، وهذه الحالة تتعدد الأنواع في أقوال الصحابة والاحتجاج بها، لا سيما في التفسير:

النوع الأول: اتفاقهم على قول واحد؛ فهذا يُعتبر إجماعاً، والإجماع حجة، ولا تجوز مخالفته.

النوع الثاني: اختلافهم اختلاف تضاد، وهذا لا يكون قول بعضهم حجة على الآخر، ويُنظر إلى الرَّاجح منهما.

النوع الثالث: قول أحدهم مما لا يُعلم له مخالف من الصحابة، وهذا على قسمين:

١- أن ينتشر ويشتهر هذا القول، ولا يوجد له مخالف، فهذا يُعتبر إجماعاً سكوتياً، والجمهور على أنه حجة.

٢- أن لا ينتشر ولا يشتهر هذا القول، وهذا فيه خلاف بين أهل العلم على قولين، والذي يظهر أنه يكون حجة ما لم يخالف الأدلة الشرعية، أو تستحيله العقول.

*مسألة: مراجع الصحابة في التفسير:

مراجع الصحابة في التفسير هي: القرآن، السنة، اللغة العربية، الفهم الصحيح، أهل الكتاب دون قبولهم للإسرائيليات إلا ما وافق الحق أو جاء به، على التفصيل الذي سيأتي إن شاء الله في آخر الكتاب في الكلام على الإسرائيليات.

انظر "معرفة علوم الحديث" للحاكم (ص:١٩-٢٠) "المستدرك"(٢/ ٢٥٨) "النكت على ابن الصلاح"(٢/ ٥٣٠-٥٣١) "السراج الوهاج في شرح المنهاج" للجاربردي (٢/ ٧٩١-٨٠٩) ت: أوزيقان "المذكرة في أصول الفقه" للشنقيطي (ص:١٨٣-١٨٨) "شرح مقدمة التفسير" للشثري (ص:١٥١-١٥٢) "التفسير والمفسرون" للدكتور الذهبي (١/ ٥٧-٦٢) "مقدمة في التفسير" لابن تيمية (ص:١٠٠-١٠٣) "أسباب الخطأ في التفسير" لطاهر محمود (١/ ٥٧-٦٣) "فصول في أصول التفسير" لمساعد الطيار (ص:٣١-٤١).

خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم، ولم تكن اللغة العربية تغيّرت كثيراً في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم [١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [٢]: إذا أجمعوا -يعني التابعين- على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من

---

(١) انظر "مقدمة في أصول التفسير"(ص:١٠٧).

هذا هو المرجع الرابع من مراجع التفسير، الرجوع إلى أقوال التابعين -رحمهم الله-؛ وذلك لأمور ذكرها المؤلف رحمه الله.

*مسألة: مصادر أخذ التابعين التفسيرَ:

القرآن، السنة، أقوال الصحابة، اللغة العربية، أهل الكتاب، الفهم والاجتهاد.

(٢) انظر "مجموع الفتاوى"(١٣/ ٣٧٠).

*مسألة: حكم تفسير التابعين:

مضى معنا الكلام على قبول قول الصحابي مع ذكر الأنواع والأقسام، وتفسير التابعين كتفسير الصحابة من حيث الأنواع والأقسام:

النوع الأول: ما رفعه التابعي إلى النبي ﷺ، ويشمل أسباب النزول؛ فهذا لا يقبل؛ لأنه من قبيل المراسيل، ما لم يحصل إجماع؛ فإن حصل إجماع فيكون التفسير مقبولاً بشروطه، ولا يكون من قول النبي ﷺ.

النوع الثاني: ما رجع فيه التابعي إلى أهل الكتاب؛ فهذا له حكم الإسرائيليات.

النوع الثالث: ما اتفقوا عليه؛ فهذا حجة.

النوع الرابع: ما اختلفوا فيه؛ وهذا لا يكون قول بعضهم حجة على البعض الآخر.

النوع الخامس: ما قاله واحدٌ منهم ولم يحصل له مخالف؛ فهذا على قسمين:

١- إذا كان مشهوراً؛ يُقبل، لكنه في الرتبة أقل من الوارد عن الصحابي إذا لم يُعلم له مخالف، وأعلى من قول من تأخَّر عنه.

٢- إذا لم يكن منتشراً ولا مشهوراً؛ فهذا أقلّ بكثير مما قبله.

بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

وقال أيضاً: من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه (١).

ثم قال: فمن خالف قولهم وفسَّر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً (٢).

خامساً: ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق، لقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾ [النساء:١٠٥]، وقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤] (٣).

---

(١) انظر "مجموع الفتاوى"(١٣/ ٣٦١).

(٢) انظر "مجموع الفتاوى"(١٣/ ٣٦٢).

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى"(١٣/ ٢٤٣): وقد تبيّن بذلك أن من فسَّر القرآن أو الحديث، وتأوله على غير التفسير عن الصحابة والتابعين فهو مفترٍ على الله ملحدٌ في آيات الله، محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام ا.هـ

(٣) المرجع الخامس من مراجع التفسير؛ اللغة العربية؛ لأنها هي التي نزل بها القرآن، قال تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤-١٩٥] ، وقال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣].

=

فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي أُخذ بما يقتضيه الشـــرعي؛ لأن القـرآن نـزل لبيان الشرع لا اللغة إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللغوي فيؤخذ به.

مثال ما اختلف فيه المعنيان وقُدِّم الشرعي: قوله تعالى في المنافقين ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَـلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة:٨٤]، فالصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع هنـا: الوقـوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة، فيُقدّم المعنى الشرعي؛ لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب (١)، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليل آخر (٢).

ومثال ما اختلف فيه المعنيان وقُدّم فيه اللغـوي بالـدليل: قولـه تعـالى ﴿خُـذْ مِـنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣]، فالمراد بالصـلاة هنـا: الدعاء، بدليل ما رواه مسلم (٣)، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي –صـلى الله عليـه وسلم– إذا أُتي بصدقة قوم صلى عليهم، فأتاه أبي بصدقة، فقـال «اللَّهُـمَّ صَـلِّ عَـلَى آلِ أَبِي أَوْفَى».

= ❁مسألة: التفسير باللغة العربية على قسمين:

القسم الأول: تفسير الكلمة القرآنية بمعرفة معانيها اللغوية.

القسم الثاني: تفسير الكلمة القرآنية بمعرفة إعراب الكلمة.

انظر "البرهان"(٢/ ١٦٥).

(١) انظر صحيح البخاري برقم (١٣٦٦) ومسلم برقم (٢٧٧٤).

(٢) قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

وانظر صحيح البخاري برقم (٣٨٨٤) ومسلم برقم (٢٤).

(٣) هو في البخاري برقم (١٤٩٧) ومسلم برقم (١٠٧٨).

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة، كالسماء والأرض والصدق والكذب والحجر والإنسان.

❊ ❊ ❊ ❊

الاختِلافُ الوَارِدُ فِي التَّفسِير المَأثُورِ

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام[(١)]:

الأول: اختلاف في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية.

مثاله: قوله تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، قال ابن عباس: قضى: أمر، وقال مجاهد: وصّى، وقال الربيع بن أنس: أوجب.

وهذه التفسيرات معناها واحد أو متقارب، فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية[(٢)].

---

(١) الاختلاف الوارد في التفسير على نوعين:

النوع الأول: ما كان مستنده النقل، وهو ما يُسمى بالتفسير المأثور، ويكون من صنفين:

١- من معصوم، وهو النبي ﷺ.

٢- من غير معصوم، من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم. هذا هو التفسير المأثور.

النوع الثاني: ما كان يُعلم بالاستدلال لا بالنقل، فهو ما يُسمى بالتفسير بالدراية؛ أي: بالرأي والاستنباط والاجتهاد، وهذا يقع فيه الخطأ كثيراً من وجهين:

١- قومٌ اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها.

٢- قومٌ فسّروا القرآن بمجرّد اللغة دون الرجوع إلى الأدلة من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو آثار وفهم السلف الصالحين.

وقد ذكرنا الأمثلة مع توسعنا في الكلام على هذه المسألة في كتابي (الهداية إلى معرفة طرق التفسير بالاجتهاد والرواية)، ولله الحمد.

انظر "مقدمة في التفسير" لشيخ الإسلام رحمه الله مع شرحها لشيخنا يحيى الحجوري –حفظه الله– (ص:٦٥إلى٩٣).

(٢) انظر "تفسير ابن جرير"(١٤/ ٥٤١-٥٤٣).

*فائدة: لفظة (قضى) تأتي على عدَّة معانٍ ذكرناها في الشرح، ولله الحمد.

الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى، والآية تحتمل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتحمل الآية عليهما وتُفسَّر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذُكر على وجه التمثيل لما تعنيه الآية أو التنويع، مثاله قوله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]، قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، وعن ابن عباس: أنه رجل من أهل اليمن، وقيل: رجل من أهل البلقاء.

والجمع بين هذه الأقوال: أن تحمل الآية عليها كلها؛ لأنها تحتملها من غير تضاد ويكون كل قول ذُكر على وجه التمثيل (١).

ومثال آخر: قوله تعالى ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ:٣٤]؛ قال ابن عباس: دهاقاً مملوءة، وقال مجاهد: متتابعة، وقال عكرمة: صافية.

ولا منافاة بين هذه الأقوال، والآية تحتملها، فتُحمل عليها جميعاً، ويكون كل قول لنوع من المعنى (٢).

= انظر "فتح الباري"(٨/ ٤٩٤) "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي (١٠/ ٢٠٧-٢٠٨).

(١) هذا القسم من الاختلاف يُسمَّى اختلاف تنوُّعٍ، وهو من باب التمثيل.

وهذه الأقوال المختلفة في هذا الرجل، هذا الاختلاف لا يضر؛ لأنه من باب التمثيل.

يعني مثال الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، مثاله: الرجل من بني إسرائيل، مثاله: الرجل من أهل اليمن، مثاله: الرجل من أهل البلقاء.

انظر "تفسير ابن جرير"(١٠/ ٥٦٦-٥٧٢) "تفسير ابن كثير" "شرح أصول في التفسير"(ص:٢١٤-٢١٥).

(٢) انظر "تفسير ابن جرير"(٢٤/ ٣٩-٤٢).

القسم الثالث: اختلاف اللفظ والمعنى والآية لا تحتمل المعنيين معاً للتضاد بينهما، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلالة السياق أو غيره.

مثال ذلك: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١١٥] قال ابن عباس: غير باغ في الميتة ولا عاد في أكله، وقيل: غير خارج على الإمام ولا عاص بسفره، والأرجح: الأول؛ لأنه لا دليل في الآية على الثاني، ولأن المقصود بحِلّ ما ذُكر دفع الضرورة، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام وفي حال السفر المُحرّم وغير ذلك.

ومثال آخر: قوله تعالى ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧] قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الذي بيده عقدة النكاح: هو الزوج، وقال ابن عباس: هو الوليّ، والراجح الأول لدلالة المعنى عليه، ولأنه قد رُوي فيه حديث عن النبي –صلى الله عليه وسلم– [1].

---

(١) هذا القِسم من الاختلاف يُسمى اختلاف تناقض، فنأخذ بالراجح بدلالة السياق أو وجود دليل آخر يؤيّد الراجح.

وقد ذكر الشيخ رحمه الله مثالين على ذلك.

المثال الأول: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١١٥].

اختلف المفسرون في قوله ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾ ما المعنى؟

فمنهم من قال: غير باغ في أكل الميتة فوق ما يسدّ جوعه، ولا عادٍ في أكلها مع وجود غيرها من الحلال، وهذا قاله ابن عباس وقتادة والحسن.

=

= ومنهم من قال: غير باغ أي: خارج على الإمام مفارق للجماعة، ولا عاد بسفره قاطع سبيل، وهذا قاله مجاهد وسعيد بن جبير.

الراجح: القول الأول، وعليه جمهور المفسرين والفقهاء؛ لأمرين:

١- دلالة سياق الآية؛ فالآية سياقها في تحريم أكل الميتة ونحوها، قال تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١١٥]، وقال تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣].

٢- لأن هذه الآية مفسّرة بقوله تعالى ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٣].

انظر "تفسير ابن جرير"(٣/ ٥٨-٦٣) "أحكام القرآن" لا بن العربي (١/ ٦٨) "شرح أصول في التفسير"(ص:٢١٦-٢١٧).

المثال الثاني: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

اختلف أهل العلم في الذي بيده عقدة النكاح من هو على قولين:

الأول: هو الزوج، وهذا قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ورواية عن ابن عباس رحمه الله، وهو قول جمهور الفقهاء والمفسرين.

الثاني: هو ولي الزوجة، وهذا القول رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الراجح: القول الأول، لسياق الآية، ومعنى ذلك: أو يعفو الذي بيده نكاح المرأة فيعطيها الصداق كاملاً.

وأما الحديث الذي أشار إليه المؤلف رحمه الله؛ فرواه الدارقطني في "السنن"(٣/ ٢٧٩) والطبراني في "الأوسط"(٦٣٥٩) عن علي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (وليُّ عقدة النكاح الزوج).

وهو حديث ضعيف؛ في إسناده: ابن لهيعة، وهو ضعيف، رفعه تارة وأرسله تارة، مما يدل على ضعف هذا الحديث، والصحيح أنه جاء عن علي رضي الله عنه موقوفاً عليه.

انظر "تفسير ابن جرير"(٤/ ٣١٧-٣٣٢) "الجامع لأحكام القرآن"(٣/ ١٩٤-١٩٦) "شرح أصول في التفسير"(ص:٢١٧-٢١٨).

(تَرْجَمَةُ القُرْآن [١])

الترجمة لغة: تُطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح.

وفي الاصطلاح: التعبير عن الكلام بلغة أخرى.

وترجمة القرآن: التعبير عن معناه بلغة أخرى [٢].

والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بإزائها.

الثاني: ترجمة معنوية أو تفسيرية، وذلك بأن يعبّر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب.

مثال ذلك: قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمة كلمة، فيترجم ﴿إِنَّا﴾ ثم ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ ثم ﴿قُرْآنًا﴾ ثم ﴿عَرَبِيًّا﴾ وهكذا.

والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة

(١) الترجمة في اللغة: تُطلق على عدة معان كلها ترجع إلى البيان والإيضاح، فمعناها ومعنى التفسير من حيث اللغة واحد.
وهذه "الترجمة" وُضعت في اللغة العربية لتدل على أحد أربعة معان:
الأول: تبليغ الكلام بلغته الذي جاء بها.
الثاني: تفسير الكلام بلغته الذي جاء بها.
الثالث: تفسير القرآن بلغة غير لغته.
الرابع: التعبير عن الكلام بلغة أخرى. انظر "مناهل العرفان" للزرقاني (٢/ ٥-٦).

(٢) انظر "شرح أصول في التفسير"(ص:٢١٩).

وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي [(١)].

حكم ترجمة القرآن:

---

(١) الترجمة الحرفية: هو أن يوضع كل كلمة بإزائها، مع مراعاة الموافقة في النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معاني الأصل المترجم.

وهذه الترجمة الحرفية على قسمين:

الأول: ترجمة حرفية بالمثل، وهو أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذواً بحذو، بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته، وأسلوبها محل أسلوبه، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعاني المفيدة بكيفياتها البلاغية وأحكامها التشريعية، وهذا أمرٌ غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز.

الثاني: ترجمة حرفية بغير المثل، وهو أن يترجم نظم القرآن حذواً بحذو بقدر طاقة المترجم وما تسعه لغته، وهذا قد يحصل، ولكنه لا يجوز بالنسبة لكتاب الله جل وعلا لمفاسد ستأتي إن شاء الله في الكلام على حكم الترجمة.

وأما الترجمة المعنوية: فهي أن يُعبِّر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة الترتيب والمفردات أو نظم الأصل.

وذلك بأن نفهم المعنى الذي يُراد من القرآن ونفسره، ثم نترجم هذا المعنى بلغة أخرى وفق الغرض الذي سيق له.

وتُسمّى هذه الترجمة بالترجمة التفسيرية؛ سميت بذلك: لأنها تُبيّن معاني تفسير القرآن الكريم.

وهناك فرقٌ بين التفسير والترجمة التفسيرية من وجهين:

الوجه الأول: اختلاف اللغتين، فلغة التفسير تكون بلغة الأصل، كما هو المتعارف المشهور، بخلاف الترجمة التفسيرية؛ فإنها تكون بلغة أخرى.

الوجه الثاني: قارئ التفسير والذي يفهمه يستطيع أن يلاحظ نظم القرآن ودلالته؛ فإن وجد خطأً نُبِّه عليه وأصلحه، وأما قارئ الترجمة فإنه لا يتسنى له ذلك؛ لجهله بنظم القرآن ودلالته، فيفهم معناها على غير المعنى الصحيح، ولا يستطيع الرجوع إلى الأصل ما دام لم يعرف اللغة العربية.

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك لأنه يُشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها وهي:

أ- وجود مفردات في اللغة المتَرْجَم إليها بإزاء حروف اللغة المتَرْجَم منها.

ب- وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المتَرْجَم منها.

ج- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات.

وقد قال بعض العلماء: إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية أو نحوها، ولكنها -وإن أمكن تحققها في نحو ذلك- محرمة لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين، ولا ضرورة تدعو إليها للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حساً في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعاً، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة مَنْ يخاطبه ليفهمها من غير أن يترجم التركيب كله فلا بأس [1].

---

(١) الترجمة الحرفية: بالمثل فهي مستحيلة عند جميع العلماء، وأما الترجمة الحرفية بغير المثل فهي مستحيلة عند أكثرهم؛ لأن بعض الكلمات قد تُترجم بالترجمة الحرفية بغير المثل، كما ذكر المؤلف رحمه الله بقوله: فالترجمة الحرفية إن أمكنت حساً في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعاً، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة مَنْ يخاطبه ليفهما من غير أن يترجم التركيب كله فلا بأس ا.هـ فهذا الكلام يتنزل في حق الترجمة الحرفية بغير المثل، والله أعلم.

وعلى كلٍ: هذه الترجمة الحرفية بنوعيها محرمة لا تجوز لأمور:

=

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فجائزة في الأصل؛ لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية؛ لأن إبلاغ ذلك واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تُجعل بديلاً عن القرآن بحيث يُستغنى بها عنه، وعلى هذا فلا بد أن يكتب القرآن باللغة العربية وإلى جانبه هذه الترجمة لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المترجم عالماً بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالماً بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن.

ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليها، بحيث يكون مسلماً مستقيماً في دينه [1].

=
١- لأنها لا تؤدي المعنى بكماله.
٢- لأنها لا تؤثر في النفوس تأثير القرآن.
٣- لأنه لا ضرورة تدعو إليها للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية.
أضف إلى ذلك:
٤- لأنها تهدر لنظم القرآن.
٥- لأنها تخلّ بمعناه.
٦- لأنها تخلّ بكونه معجزاً للبشر، وغيرها من المفاسد الناتجة عن هذه الترجمة المحرمة.
انظر "شرح أصول في التفسير" (ص:٢٢١-٢٢٢) "التفسير والمفسرون" (١/ ٢٥).

(١) الترجمة المعنوية بحيث يترجم معنى الآية جائزة، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، فالرسول ﷺ أنذر الأمة، ومعلوم أنه يوجد =

❋ ❋ ❋ ❋

= أناس عجم يحتاجون إلى من يبلغهم بلغتهم؛ لأنهم لا يفهمون العربية؛ لهذا كان لا يُتوصّل إلى تعريف العجم الإسلام وإدخالهم فيه وتفهيمهم القرآن إلا بهذه الترجمة؛ فإنها تصير واجبة؛ لأن تعلّم الإسلام ودخوله واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن هنا نعلم أن تعلّم اللغات الأخرى واجب كفائي إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، والله أعلم.

واشترط أهل العلم شروطاً في الترجمة المعنوية، الترجمة التفسيرية، وهي تعود إلى الترجمة وإلى المترجِم، أما شروط الترجمة؛ فقد ذكرها المصنف.

وأما شروط المتَرْجِم، فمنها:

١- أن يكون مؤمناً مسلماً مستقيماً في دينه، ثقة.

٢- أن يكون صحيح المعتقد، لا يفسر القرآن ولا يترجمه بمعتقد مخالف للكتاب والسنة.

٣- أن يكون دقيق الفهم، وقوي الترجمة، وله معرفة بالتفسير والترجمة.

٤- أن يسير في ترجمته مسيرة التفسير، فلا يترجم بفهم غير فهم الكتاب والسنة والصحابة والتابعين.

(المُشْتَهِرُونَ بالتَّفْسِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ)

اشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة، ذكر السيوطي منهم الخلفاء الأربعة: أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلياً رضي الله عنهم، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة لانشغالهم بالخلافة، وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير [(١)].

---

(١) في هذا الموضوع ذكر المؤلف رحمه الله المشتهرين بالتفسير من الصحابة رضي الله عنهم، وأن الخلفاء الأربعة من المشتهرين بالتفسير؛ أقول: بل هم أعلم الصحابة بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عموماً، وقبل الشروع في ذكر من اشتهر بالتفسير من الصحابة نذكر هنا مسائل في شرح هذه الجملة من كلام المؤلف رحمه الله:

المسألة الأولى: تنصيص أهل العلم في المشتهرين بالعلم من الصحابة:

نصّ أكثر من واحد من أهل العلم في المشتهرين من الصحابة، وهم الخلفاء الأربعة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وغيرهم رضي الله عنهم، وممن نصّ على ذلك السيوطي رحمه الله في "الإتقان"(٢/ ٥٢٩) و"التحبير في علم التفسير"(ص:١٣٣)، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "مقدمة في أصول التفسير"(ص:١٠٠).

وانظر "المدخل لدراسة القرآن الكريم" لمحمد أبو شهبة (ص:٣٥٣).

المسألة الثانية: السبب في قلة رواية الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم في التفسير مع علمهم الغزير في ذلك:

هناك أسباب في ذلك، منها: ١- تقدُّم وفاتهم. ٢- اشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات. ٣- وجودهم في وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ٤- سلامة لغتهم العربية، وكان الناس مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إلى الخلفاء الأربعة في التفسير غير كبيرة. ٥- صفاء الفطرة، لم تتلوث فطرة الناس بأفكار هدامة وعقائد منحرفة في عهد الخلفاء لا سيما في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهما في التفسير غير كبيرة. هذه أشهر الأسباب.

=

ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة –أيضاً–: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، فلنترجم لحياة علي بن أبي طالب مع هذين رضي الله عنهم [(١)].

١ – علي بن أبي طالب:

هو ابن عم الرسول –صلى الله عليه وسلم– [(٢)]، وزوج ابنته فاطمة –رضي الله عنه وعنها– [(٣)]،

=
وانظر "الإتقان"(٢/ ٥٢١) "التفسير والمفسرون"(٢١/ ٦٣) "شرح أصول في التفسير"(ص:٢٢٦) "أسباب الخطأ في التفسير"(٢/ ٩٥٣فما بعد).

المسألة الثالثة: علي بن أبي طالب رضي الله عنه أكثر الخلفاء الراشدين رواية في التفسير:

وذلك لأمور:

الأول: تفرّغه عن مهام الخلافة مدة طويلة دامت إلى نهاية خلافة عثمان بن عفان –رضي الله عنه–.

الثاني: تأخّر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسّر لهم ما خُفي عنهم من معاني القرآن، وذلك ناشئ عن اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم في دين الله، مما كان يذهب بخصائص اللغة العربية. انظر "التفسير والمفسرون"(١/ ٦٣-٦٤) "شرح أصول في التفسير"(ص:٢٢٦).

(١) اشتهرهؤلاء بالتفسير على غيرهم لعدة أمورٍ ذكرناها في الشرح، وانظر "التفسير والمفسرون"(١/ ٦٣-٦٤).

(٢) لأنَّ أباه؛ أبو طالبٍ، بن عبد المطلب، وأبا رسول الله اسمه عبد الله بن عبد المطلب، من بني عدنان.

(٣) روى الإمام النسائي رحمه الله في "السنن" برقم (٣٢٢١)، عن بريدة رضي الله عنه قال: خطب أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فاطمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنَّهَا صَغِيرَةٌ» فخطبها علي فزوّجها منه. هذا حديث صحيح.
=

وأول من آمن به من قرابته [١]، اشتهر بهذا الاسم، وكنيته أبو الحسن وأبو تراب [٢].

ولد قبل بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– بعشر سنين، وتربّى في حجر النبي –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– [٣]، وشهد معه المشاهد كلها، وكان صاحب اللواء في معظمها، ولم يتخلف إلا في غزوة تبوك، خلَّفه النبي –صلى الله عليه وسلم– في أهله، وقال له «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّى بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِى» [٤].

= وكان ذلك في السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر، كما في "سير أعلام النبلاء" للإمام الذهبي (٢/ ١١٨-١١٩).

(١) اختلف العلماء في أول من أسلم من الصحابة عموماً، ذكرنا الاختلاف مع الترجيح في الشرح، خلاصته: أولهم من الصبيان والقرابة علي، ومن الكهول أبو بكر، هذا من الرجال، ومن النساء خديجة، وأمَّا من حيث قبل البعثة فأولهم ورقة بن نوفل، والله أعلم. وانظر "البداية والنهاية" لابن كثير (٣/ ٢٦).

(٢) أبو الحسن نسبةً لابنه الأكبر، وأبو تراب كنَّاه النبي ﷺ بذلك كما ذكرنا في الشرح.

(٣) ولادته كانت قبل البعثة بعشر سنين على القول الراجح، ذكره ابن إسحاق، ورجّحه الحافظ ابن حجر رحمه الله.
انظر "السيرة النبوية"(١/ ٢٦٢) "فتح الباري"(٧/ ٩١).

(٤) روى الإمام البخاري برقم (٣٨٠٦) (٤٤١٦)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف علياً، فقال أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال «أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي» ورواه مسلم برقم (٢٤٠٤).

نُقل له من المناقب والفضائل ما لم يُنقل لغيره [١]. وهلك بـه طائفتـان: النواصـب: الذين نصبوا له العداوة، وحاولوا إخفاء مناقبه [٢]، والروافض: الذين بالغوا فـيما زعمـوه من حبّه، وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو غِنىً عنه، بل هـو عنـد التأمـل مـن المثالب [٣].

اشتهر بالشجاعة رضي الله عنه والذكاء مع العلم والزكاء حتى كان أمير المؤمنين عمـر بـن

---

(١) سبب كثرة نقل فضائله أنه تأخّر، ووقع الاختلاف في زمانه وخرج من خرج عليه، فكان ذلك سبباً لانتشار مناقبه من كثرة من كان بينها من الصحابة رداً على من خالفه، فكان الناس طائفتين، لكن المبتدعة قليلة جداً.
ثم كان من أمر عليٍّ رضي الله عنه فنجمت طائفة أخرى حاربوه، ثم اشتدّ فتنقصوه، واتخذوا لعنه على المنابر سنة، ووافقهم الخوارج على بغضه، وزادوا حتى كفروه، مضموماً ذلك منهم إلى عثمان، فصار الناس في حق علي ثلاثة: أهل السنة ، والمبتدعة من الخوارج، والمحاربين له من بني أمية واتباعهم، فاحتاج أهل السنة إلى بثِّ فضائله، فكثر الناقل لذلك لكثرة من يخالف ذلك، وإلا فالذي في نفس الأمر أن لكل من الأربعة من الفضائل إذا حرر بميزان العدل لا يخرج عن قول أهل السنة والجماعة أصلاً ا.هـ من "فتح الباري"(٧/ ٩١-٩٢).

(٢) النواصب فرقة مبتدعة ضالة منحرفة، تطعن في آل البيت، وتحقّر من شأنهم، وهي والرافضة طرفا نقيض، وقد ذكرنا أمثلة على طعنهم في آل البيت في الشرح.

(٣) الروافض فرقة مارقة عن الدِّين تدَّعي حبَّ آل البيت، وهي طائفة منافقة تتلبس بهم كي ينفق رواجهم في نشر أفكارهم النفاقية لهدم الإسلام باسمه، وقد غلو كثيراً في علي وآل البيت، كما ذكرنا ذلك في الشرح بتوسُّعٍ.
وقد اختلقوا مناقب مكذوبة في الحقيقة هي مثالب وليست مناقب، كما مثَّلنا لذلك في الشرح.
وانظر "منهاج السنة النبوية" لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٢٨-٣٠) (٧/ ٤٩٨).

الخطاب ﷺ يتعوّذ من مُعْضلة ليس لها أبو حسن [١].

ومن أمثلة النَّحْويين: قضية ولا أبا حسن لها [٢].

وروي عن علي أنه كان يقول: سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أُنزلت بليل أو نهار [٣].

وقال ابن عباس ﷺ: إذا جاءنا الثبت عن علي لم نَعْدِل به [٤]، وروي عنه أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب.

كان أحد أهل الشورى الذين رشَّحهم عمر ﷺ لتعيين الخليفة، فعرضها عليه

---

(١) أخرجه ابن سعد ﷺ في "الطبقات"(٢/ ٣٣٩) عن سعيد بن المسيب ﷺ، وفي إسناده: مؤمّل بن إسماعيل البصري، وهو صدوق سيئ الحفظ. "التقريب"(٧٠٧٨).

(٢) تُعزى إلى عمر بن الخطاب ﷺ، والمعنى: أي: هذهِ قضيّةٌ ولا فيصلَ لها يَفصِلُها. راجع "شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك"(٢/ ٦) "أسرار العربية" للأنباري (ص:١٣٨) "شذور الذَّهب في معرفة كلام العرب" لابن هشام (ص:٢٣٠) "جامع الدروس العربية" لمصطفى الغلاييني (ص:٤٧٣).

(٣) أخرجه ابن سعد في "الطبقات"(٢/ ٣٣٨) بلفظ: سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل. ورجاله ثقات.
وأخرج ابن عبد البر ﷺ في "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"(٣/ ١١٠٣) عن سعيد بن المسيب ﷺ أنه قال: ما كان أحدٌ من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب ﷺ. وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه ابن عبد البر ﷺ في "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"(٣/ ١١٠٤).
وأمّا ما جاء أن النبي ﷺ قال (أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها) فهو حديث موضوع، أنكره أهل العلم، وبيّنوا عِلَّته. انظر "التذكرة في الأحاديث المشتهرة" للزَّركشي (ص:١٦٣-١٦٤).

عبد الرحمن بن عوف فأبى إلا بشروط لم يقبل بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه علي والناس [١]، ثم بويع بالخلافة بعد عثمان [٢] حتى قُتِلَ شهيداً في الكوفة ليلة السابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة رضي الله عنه [٣].

٢- عبد الله بن مسعود:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، وأمّه أم عبد كان يُنسب إليها أحياناً، وكان من السابقين الأولين في الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً وما بعدها من المشاهد [٤].

تلقّى من النبي -صلى الله عليه وسلم- بضعاً وسبعين سورة من القرآن [٥]. وقال له

---

(١) انظر صحيح البخاري برقم (٣٧٠٠)، وانظر "البداية والنهاية" لابن كثير (٧/ ١٤٢) "منهاج السنة النبوية"(٣/ ١٦٢-١٦٣).

(٢) انظر "فضائل الصحابة" رقم (٩٦٩)، انظر "الطبقات الكبرى" لابن سعد (٣/ ٣٠-٣١) "الإبانة عن أصول الديانة" لأبي الحسن الأشعري (ص:٧٨) "الإمامة والرّد على الرافضة" لأبي نُعيم (ص:٣٦٠-٣٦١) "الاقتصاد في الاعتقاد" للمقدسي (ص:١٥٤) "لوامع الأنوار البهية" للسفاريني (٢/ ٣٤٦) "الوصية الكبرى" لشيخ الإسلام (ص:٢٣) "فتح الباري" للحافظ (٧/ ٩٢).

(٣) قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي الخارجي، عندما خرج لصلاة الصبح اعترضه في الطريق وقتله، وكانت وفاته في سنة أربعين من الهجرة النبوية، في شهر رمضان، ليلة السابع عشر، رضي الله عنه، ولا حول ولا قوة إلا بالله. انظر "الطبقات" لابن سعد (٣/ ٣٠-٣١).

(٤) انظر "الطبقات"(٣/ ١٥٠) "الاستيعاب"(٣/ ٩٨٧-٩٨٨) "الفتح"(٧/ ١٣٠).

(٥) في صحيح البخاري برقم (٥٠٠٠) ومسلم برقم (٢٤٦٢) قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعاً وسبعين سورة، ولقد علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أعلمهم بكتاب الله، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني لرحلت إليه.

النبي –صلى الله عليه وسلم– «إِنَّكَ لَغَلامٌ مُعَلَّمٌ» (١)، وقال «مَنْ أَحبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ» (٢).

وفي صحيح البخاري أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد علم أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنّي من أعلمهم بكتاب الله.

وقال: والله الذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه (٣).

وكان ممن خدم النبي –صلى الله عليه وسلم–، فكان صاحب نعليه وطهوره ووساده (٤)، حتى قال أبو موسى الأشعري: قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حيناً ما

(١) أخرجه أحمد برقم (٣٥٩٩)، وإسناده حسنٌ، وجاء بلفظ «يَرْحَمُكَ اللهُ، فَإِنَّكَ غُلَيِّمٌ مُعَلَّمٌ» رواه أحمد في "المسند"(٣٥٩٨)، وإسناده حسن.

(٢) أخرجه ماجه في "سننه" برقم (١٣٨) عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وإسناده حسن، وهو حديث صحيح، وقد رواه أيضاً أحمد برقم (١٧٥) عن عمر رضي الله عنه بلفظ «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْبَاً كَمَا أُنْزِلَ ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ».

(٣) "صحيح البخاري" برقم (٥٠٠٢) و"صحيح مسلم" برقم (٢٤٦٣).

(٤) روى البخاري رحمه الله برقم (٣٧٤٢) و(٣٧٦١)، عن علقمة قال: دخلت الشام فصليت ركعتين، فقلت: اللهم يسر لي جليساً صالحاً، فرأيت شيخاً مقبلاً، فلما دنا، قلت: أرجو أن يكون استجاب، قال: من أين أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: أفلم يكن فيكم صاحب النعلين والوساد والمطهرة؟!...الخ يعني –ابن مسعود. والشيخ هو أبو الدرداء رضي الله عنه كما هو مبيّن في الرقم الأول.

=

نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجلٌ من أهل بيت النبي –صلى الله عليه وسلم– لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي –صلى الله عليه وسلم– [(١)].

ومن أجل ملازمته النبي –صلى الله عليه وسلم– تأثّر به وبهديه، حتى قال فيه حذيفة: ما أعرف أحداً أقرب هَدْيَاً وسَمْتَاً ودَلاًّ بالنبي –صلى الله عليه وسلم– من ابن أمّ عبد [(٢)].

بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة ليُعلّمهم أمور دينهم، وبعث عماراً أميراً، وقال: إنهما من النجباء من أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم– فاقتدوا بهما [(٣)]، ثم أَمَّرَهُ عثمان على الكوفة ثم عزله وأَمَرَه بالرجوع إلى المدينة [(٤)] فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين [(٥)]، ودفن

= وقد جاء أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه في "سنن الترمذي" برقم (٣٨١١).

صاحب النعلين: أي نعلي النبي ﷺ، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يحملها ويتعاهدهما.

المطهرة: أي: ما يُطهر به.

الوساد: أي: الأسرار، يعني أسرار النبي ﷺ.

قوله (سمتاً) أي: خشوعاً. قوله (هدياً) أي: طريقة. قوله (دلاً) أي: سيرة وحالة وهيئة، وكأنه مأخوذ مما يدل ظاهر حاله على حُسْن فِعالِه. انظر "الفتح"(٧/ ١٣٠).

(١) رواه البخاري برقم (٣٧٦٣) ومسلم برقم (٢٤٦٠).

(٢) رواه البخاري برقم (٣٧٦٢).

(٣) رواه ابن سعد رحمه الله في "الطبقات"(٦/ ٧-٩) بعدة ألفاظ، بأسانيد صحيحة.

(٤) رواه ابن عبد البر رحمه الله في "الاستيعاب"(٣/ ٩٩٣).

(٥) بالاتفاق، كما في معرفة "القرّاء الكبار" للذهبي (١/ ٣٦).

بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة [(١)].

٣- عبد الله بن عباس:

هو ابن عم رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، لازم النبي –صلى الله عليه وسلم؛ لأنه ابن عمّه [(٢)].

---

(١) المشهور المتناقل عند أهل السير أنه توفي وهو ابن بضع وستين سنة. انظر "الطبقات"(٣/ ١٦٠) "الاستيعاب"(٣/ ٩٩٣-٩٩٤) "الفتح"(٧/ ١٣٠).

(٢) اسم ونسب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: هو حبر الأمة وترجمان القرآن البحر: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب...، نسبه كنسب النبي صلى الله عليه وسلم، يلتقي بالنبي عند الجد –عبد المطلب-. وكنيته أبو العباس. وأمه هي لبابة بنت الحارث أخت ميمونة زوجة رسول الله.

وهو ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وُلِد قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بثلاث سنين، وتوفي رسول الله –صلى الله عليه وعلى آله وسلم- وكان قد مضى من عمره آنذاك ثلاث عشرة سنة على القول الراجح، كما بيَّنَّا ذلك بتوسعٍ في الشرح.

انظر "الاستيعاب"(٣/ ٩٣٣-٩٣٤)"الإصابة"(٤/ ١٢٢) "أسد الغابة" لابن الأثير (٣/ ٢٩٢) و"معرفة الصحابة" لأبي نعيم (٣/ ١٧٠٠) "تحفة المودود"(ص:١٣٩).

لازم النبي صلى الله عليه وسلم لأنه ابن عمّه، ولأن خالته ميمونة تحت النبي صلى الله عليه وسلم، فكان يجلس عندها، ويستفيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفاد من النبي صلى الله عليه وسلم علماً غزيراً، قولاً وفعلاً، كما في صحيح البخاري برقم (١١٧)، والبخاري أيضاً برقم (٦٣١٦) ومسلم برقم (٧٦٣).

وروى ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة، وقد أحصى الإمام أحمد رحمه الله ما صرّح به ابن عباس رضي الله عنهما بالسماع من النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث، أحصاها فإذا هي ثمانون أو نيف وسبعون حديثاً مصرحاً بالسماع. انظر "العلل ومعرفة الرجال" للإمام أحمد (رقم المسألة:١٧١٦-١٧١٧) (٢/ ١٠٦-١٠٧).

=

وخالته ميمونة تحت النبي –صلى الله عليه وسلم–، وضمّه النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى صدره، وقال «الَّلهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ» [1]، وفي رواية «الكِتَابَ» [2]، وقال له حين وضع له وَضوءه «الَّلهُمَّ فَقِّهُ فِي الدِّينِ» [3]، فكان بهذا الدعاء المبارك حَبْرَ الأمة في نشر التفسير والفقه حيث وفقه الله للحرص على العلم، والجدّ في طلبه، والصبر على تلقّيه وبذله، فنال بذلك مكاناً عالياً.

حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعوه إلى مجالسه ويأخذ بقوله، فقال المهاجرون: ألا تدعوا أبناءنا كما تدعوا ابن عباس؟! فقال لهم: ذاكم فتى الكهول، له لسان سَؤول، وقلب عَقُول [4].

= وهو من المكثرين في الحديث، ذكر الذهبي رحمه الله في "السير"(٣/ ٣٥٩) أن له ألفاً وست مائة وستين حديثاً، وله من ذلك في الصحيحين: خمسة وسبعون، وتفرّد البخاري بمائة وعشرين حديثاً، وتفرد مسلم بتسعة أحاديث ا.هـ

واستفاد رضي الله عنهما من كبار الصحابة وجدّ واجتهد في تحصيل العلم على أيديهم، كما في مقدمة سنن الدارمي برقم (٥٦٦)، و"المعجم الكبير"(١٠٥٩٢) و"الطبقات" لابن سعد (٢/ ٣٧١)، وانظر "السير"(٣/ ٣٣٢) و"تهذيب الكمال"(١٥/ ١٥٥-١٥٦).

(١) رواه البخاري برقم (٣٧٥٦).

(٢) في البخاري أيضاً.

(٣) رواه البخاري برقم (١٤٣)، ورواه مسلم برقم (٢٤٧٧) بلفظ «الَّلهُمَّ فَقِّهُ» فقط. وجاء في "مسند أحمد"(١/ ٢٦٦) بلفظ «الَّلهُمَّ فَقِّه فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأوِيلَ» أي: التفسير. وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم في "المستدرك"(٣/ ٥٣٩-٥٤٠) وفيه انقطاع؛ فإن الزهري لم يسمع من عمر رضي الله عنه.

=

ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه، فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فتح علينا، وسكت بعضهم، فقال عمر لابن عباس: أكذلك تقول؟ قال: لا، قال: فما تقول؟ قال: هو أجل رسول الله –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– أعلمه الله له، إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة فذلك علامة أجلك، فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً. قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم (١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لَنِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس، ولو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد (٢).

أي: ما كان نظيراً له، هذا مع أن ابن عباس عاش بعده ستاً وثلاثين سنة، فما ظنّك بما اكتسبه بعده من العلم.

وقال ابن عمر لسائل سأله عن آية: انطلق إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم مَنْ بقي

= وأبو نُعيم في "معرفة الصحابة"(٤٢٦١) وفيه: أبو بكر الهُذلي، وهو متروك، وفيه انقطاع بين الحسن وعمر فإنه لم يسمع منه.

(١) رواه البخاري برقم (٤٢٩٤) و(٤٩٧٠) وفي عدة مواضع من صحيحه.

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٣٧) وابن سعد في "الطبقات" (٢/ ٣٦٧) بسند صحيح، وأخرجه ابن سعد في "الطبقات"(٢/ ٣٦٦) بلفظ: نِعْمَ ترجمان القرآن عبد الله بن عباس. وإسناده صحيح.

ولقَّب بالحبر، والبحر كما صحَّ عن مجاهدٍ رحمه الله، كما أخرجه ابن سعد في "الطبقات"(٢/ ٣٦٦) والحاكم في "المستدرك"(٣/ ٥٣٥).

بما أُنزل على محمدٍ –صلى الله عليه وسلم– [(١)].

وقال عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس فقهاً وأعظم خشية، وإنّ أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشِّعر عنده، يصدرهم كلهم من وادٍ واسع [(٢)].

وقال أبو وائل: خطبنا ابن عباس وهو على الموسم –أي والٍ على موسم الحج من عثمان رضي الله عنه فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسِّر، فجعلت أقول ما رأيت ولا سمعت كلام رجلٍ مثله، ولو سمعته فارس والروم والترْك لأسلمت [(٣)].

ولاّه عثمان على موسم الحج سنة خمس وثلاثين، وولاّه عليٌّ على البصرة فلمّا قُتل

---

(١) أخرجه أبو زرعة الدمشقي رحمه الله في "التاريخ"(١/ ٦١٦) برقم (١٧٥٨) وفيه أن الذي سأل امرأة. وسنده ضعيف جداً، فيه: يحيى بن يمان، وهو صدوق عابد يُخطئ كثيراً، وقد تغيّر. "التقريب"(٧٧٢٩)، وفيه: رجلٌ مبهم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وأخرج ابن أبي خيثمة نحوه بإسناد حسن ا.هـ من "الفتح"(٧/ ١٢٧).

وبنحوه أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٦٩) قال ابن عمر رضي الله عنهما: أعلمنا ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) جاء بنحوه عند ابن سعد (٢/ ٣٦٧)، عن عطاء قال: كان ناسٌ يأتون ابن عباس للشعر، وناسٌ للأنساب، وناسٌ لأيام العرب، ووقائعها، فما منهم من صنف إلا يُقبِل عليه بما شاء.

وجاء بنحوه عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، بإسناد صحيح، رواه ابن سعد (٢/ ٣٦٨) وانظر "الاستيعاب"(٣/ ٩٣٩).

(٣) أخرجه الحاكم في "المستدرك"(٣/ ٥٣٧)، وهو حديث صحيحٌ. وفي "الطبقات" لا بن سعد (٢/ ٣٦٧) بإسناد صحيح، عن الحسن البصري رحمه الله قال: أوّل من عُرف بالبصرة عبد الله بن عباس، قال: وكان مِثجَّةً كثير العلم، قال: فقرأ سورة البقرة ففسرها آية آية.

مضى إلى الحجاز فأقام في مكة ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنة ثمانية وستين عن إحدى وسبعين سنة [(١)].

* * * *

(١) على خلافٍ بين أهل العلم، وصلّى عليه محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بـ"محمد بن الحنفية"، ودفنه، وقال: اليوم مات ربّاني هذه الأمة. انظر "الاستيعاب"(٣/ ٩٣٤) "المستدرك"(٣/ ٥٤٣) "الفتح"(٧/ ١٢٧).

(المشْتَهُورنَ بالتَّفْسِير مِنَ التَّابِعِينَ)

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون [١]، فمنهم:

أ- أهل مكة: وهم أتباع ابن عباس، كمجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح.

ب- أهل المدينة: وهم أتباع أُبيّ بن كعب، كزيد بن أسلم، وأبي العالية، ومحمد بن كعب القُرظي.

ج- أهل الكوفة: وهم أتباع ابن مسعود، كقتادة، وعلقمة، والشعبي.

فلنترجم لحياة اثنين من هؤلاء: مجاهد وقتادة.

١- مجاهد:

هو مجاهد بن جَبْر المكي مولى السائب بن أبي السائب المخزومي [٢]، وُلِدَ سنة إحدى وعشرين من الهجرة.

---

(١) سبق أن ذكرنا أن التابعين يُرجع إليهم في التفسير، وهم المرتبة الرابعة في ذلك، وذكرنا شيئاً من الكلام حول تفسيرهم.
وهنا يذكر المؤلف رحمه الله من اشتهر من التابعين في تفسير القرآن الكريم، نقلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من كتابه "مقدمة في أصول التفسير" مع وجود شيء من التصرّف.

(٢) هو مجاهد بن جبر -ويقال ابن جبير-، والأول أصح، القرشي المخزومي.
اختُلف في ولائه لمن هو: فقيل: هو مولى السائب بن أبي السائب. وقيل: مولى ابن السائب، واسمه: عبد الله. وقيل: مولى قيس بن السائب بن عُويمر. انظر "طبقات المفسرين" للحافظ محمد بن علي الداودي (٢/ ٣٠٥-٣٠٦).
وكنيته: أبو الحجاج.
وُلِد سنة إحدى وعشرين من الهجرة النبوية في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما [١].

روى ابن إسحاق عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أُوقفُه عند كل آية وأسأله عنها [٢].

وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به [٣].

---

(١) أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروى عن عائشة، وأبي هريرة، ورافع بن خديج، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وجويرية بنت الحارث أم المؤمنين، وأم سلمة رضي الله عنهم.

(٢) هذا الأثر بهذا اللفظ صحيح، أخرجه الحاكم في "المستدرك"(٢/ ٢٧٩) بسند حسن، وله طرق يُصحّح بها.

وقد جاء بلفظ: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة. أخرجه ابن سعد في "الطبقات"(٥/ ٤٦٦).

وفيه: الفضل بن ميمون، أبو الليث: ذكره ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل"(٧/ ٦٧) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً.

والأول أصحّ من هذا، انظر "معرفة القرّاء الكبار" للذهبي (١/ ٦٦) "طبقات المفسرين"(٢/ ٣٠٦).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في "تفسيره"(١/ ٨٥)، بسندٍ حسنٍ.

وجاء عنه –أيضاً– أنه قال: خذوا التفسير عن أربعة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك بن مزاحم. أخرجه أبو نُعيم في "الحلية"(٣/ ٣٢٨-٣٢٩) وابن عساكر في "تاريخ دمشق"(٤١/ ٩٢) بسندٍ حسن.

واعتمد تفسيره الشافعي والبخاري وكان كثيراً ما ينقل عنه في صحيحه [١]، وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به [٢].

توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع ومئة عن ثلاث وثمانين سنة [٣].

٢ - قتادة:

هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري، وُلِد أكْمَه -أي أعمى- سنة إحدى وستين.

وجدّ في طلب العلم، وكان له حافظة قوية حتى قال عن نفسه: ما قلتُ لمحدِّث قَط أَعِدْ لي، وما سمِعَت أُذناي شيئاً قط إلا وعاه قلبي [٤].

وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلَّما تجد مَنْ يتقدمه، أما المِثل فلعل [٥]

.

(١) انظر "مقدمة في أصول التفسير"(ص:٤٢) "مجموع الفتاوى"(٥/ ٢٠١)، وانظر "السير" للذهبي (٦/ ١٢٦).

(٢) انظر "ميزان الاعتدال"(٣/ ٤٣٩).

(٣) انظر "تهذيب الكمال"(٢٧/ ٢٢٨-٢٣٥) "الطبقات" لابن سعد (٥/ ٤٦٦-٤٦٧) "طبقات المفسرين"(٢/ ٣٠٥-٣٠٨) "معرفة القرّاء الكبار"(١/ ٦٦-٦٧).

(٤) هذا الأثر عنه رواه أبو نُعيم الأصبهاني في "الحلية"(٢/ ٣٣٤) بإسناد حسن.

وروى ابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل"(٧٥٦) عن ابن سيرين أنه قال: قتادة أحفظ الناس. وهو ثابت إليه.

(٥) هذا الكلام إلى الإمام أحمد صحيحٌ، انظر "الجرح والتعديل"(٧٥٦).

وقال: هو أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئاً إلا حفظه [(١)].

توفي في واسط سنة سبع عشرة ومئة عن ستٍ وخمسين سنة [(٢)].

* * * *

(١) صحيحٌ أيضاً، انظر المرجع السابق.

وما جاء أن قتادة ﵀ كان إذا سمع الحديث يختطفه اختطافاً، وإذا سمع الحديث يأخذه العويل والزّويل حتى يحفظه؛ فلم يثبت، رواه الفسوي في "المعرفة والتاريخ" (٢/ ٢٨٢) وفيه: مطر الورَّاق، وهو ضعيف.

(٢) هذا قول حماد بن زيد، ويحيى بن معين، وموسى بن إسماعيل، وابن المديني. وقال أحمد: مات سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة ومائة. وقال إسماعيل بن عُليّة: مات سنة ثماني عشرة ومائة. انظر "تهذيب الكمال"(٢٣/ ٤٩٨-٥١٧) "حلية الأولياء"(٢/ ٣٣٣-٣٣٥فما بعد).

(الْقُرْآنُ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ)

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه (١) إلى ثلاثة أنواع:

---

(١) تعريف المُحْكَم لغةً: الحاء والكاف والميم أصلٌ واحد، وهو المنع، وأوّل ذلك الحكم، وهو المنع من الظلم، وسُمّيت حَكَمة الدابة لأنها تمنعها، يُقال: حكمت الدابة، وأحكمتها، ويُقال: حكمت السَّفيه وأحكمته، إذا أخذت على يديه.

قال جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا ا.هـ المراد من "معجم مقاييس اللغة"(مادة:حَكَمَ).

والمحْكَم: هو المُتقن، قال الفيومي: وأحكمت الشيء -بالألف- أتقنته، فاستحكم هو صار كذلك ا.هـ من "المصباح المنير"(مادة: حكم)وانظر "التدمرية" لشيخ الإسلام (ص:١٠٣) وانظر "لسان العرب"(٣/ ٢٧٢).

تعريف التشابه لغة: قال ابن فارس في "معجم المقاييس"(مادة: شَبَهَ): الشين والباء والهاء واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً ا.هـ

وأما تعريفهما اصطلاحاً فخلاف بين العلماء بيناه في الشرح، وانظر "الإتقان"(٢/ ٥-٧) "مجموع الفتاوى"(١٧/ ٤١٧-٤٢٤) (١٣/ ٢٧٢-٢٧٥) "تفسير ابن كثير" عند الآية السابعة من سورة آل عمران.

*مسألة: اختلف أهل العلم في القرآن متشابه ومحكمه على ثلاثة أقوال:

لا تعارض بينها؛ فالقرآن كله محكم من حيث الإتقان والصدق والإحكام والجودة، وكله متشابه من حيث أنه يشبه بعضه بعضاً في الكمال والإتقان والجودة والقصص، وبعضه محكم من حيث وضوح الآيات في الدلالة التي لا التباس فيها على أحدٍ من الناس، وبعضه متشابه من حيث الاشتباه في الدلالة على بعض الناس، بل على كثير منهم، وهذا يُردّ إلى المحكم. انظر "الإتقان"(٢/ ٥) "تفسير ابن كثير" عند الآية السابعة من سورة آل عمران.

النوع الأول: الإحكام العام الذي وُصِف به القرآنُ كلّه، مثل قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]، وقوله تعالى ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس:١]، وقوله ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤١].

ومعنى هذا الإحكام: الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه، فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب ولا تناقض ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلها عدل وحِكْمةٌ، ليس فيها جَوْر ولا تعارض ولا حكم سفيه [1].

النوع الثاني: التشابه العام الذي وُصِف به القرآن كله، مثل قوله تعالى ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر:٢٣]، ومعنى التشابه أن القرآن كله يشبه بعضه بعضاً في الكمال والجودة والغايات الحميدة ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

---

(١) الفصاحة في لغة العرب: لها معانٍ كثيرة، منها: البيان والظهور.

وأما البلاغة، في اللغة: الوصول والانتهاء.

فالقرآن الكريم في غاية من البلاغة، وفي غاية مطابقة مقتضى الحال مع الفصاحة. انظر "جواهر البلاغة"(ص:١٥-١٦و ٤٢-٤٣) "شرح دروس البلاغة" للعثيمين (ص:١٠-١٩).

قوله (ولا لغو لا خير فيه): اللغو من الكلام: ما لا يُعتد به، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر، فيجري مجرى اللّغا، وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور..."المفردات" للراغب (ص:٧٤٢) مادة: لغا.

وقوله (ليس فيه جَوْر): بفتح المعجمة، بمعنى ليس فيه العدول عن الحق، وليس فيه ظلم.

* مسألة: ذكر الشيخ العثيمين ﷺ مسألة في تفاضل القرآن في هذا الباب، في شرحه لهذه الرسالة (ص:٢٣٧) خلاصته أن القرآن يتفاضل كما ذكرناه في الشرح.

[النساء:٨٢] (١).

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه، والتشابه الخاص ببعضه، مثل قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧].

ومعنى هذا الإحكام أن يكون معنى الآية واضحاً جلياً لا خفاء فيه، مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣] وقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [القرة:٢١] وقوله ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة:٢٧٥] وقوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [المائدة:٣]، وأمثال ذلك كثيرة.

ومعنى هذا التشابه أن يكون معنى الآية مشتبهاً خفياً بحيث يتوهَّم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى أو كتابه أو رسوله، ويفهم منه العالم الراسخ في العلم خلاف ذلك (٢).

---

(١) انظر "التدمرية"(ص:١٠٤).

(٢) هذا التشابه النسبي على ثلاثة أقسام من حيث الجملة:

القسم الأول: متشابه من جهة اللفظ فقط، وهو على نوعين:

النوع الأول: تشابه لفظي يرجع إلى الألفاظ المفردة، إما من جهة الغرابة، نحو "الأبَّ" و"يزفون"، فهذان اللفظان غريبان مشتبهان لا يعلمهما كثيرٌ من الناس.

النوع الثاني: تشابه لفظي يرجع إلى جملة الكلام المركَّب، وهذا على ثلاثة أنواع:

=

الأول: لاختصار الكلام، نحو قوله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣]، يعني: إن خفتم ألا تقسطوا في نكاح اليتامى بأن لا تعطوهن مهرهن كمهر غيرهن؛ فانكحوا غيرهن من النساء، قال العلماء: إذا كانت اليتيمة تحت أحدكم وخاف ألا يعطيها مهر مثلها؛ فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيّق الله عليه. انظر "تفسير ابن كثير" عند هذه الآية.

عمدتهم حديث عائشة رضي الله عنها الذي رواه البخاري برقم (٥١٤٠) (٤٥٧٣) ومسلم برقم (٣٠١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

الثاني: لبسط الكلام، نحو قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]؛ لأنه لو قيل: ليس مثله شيء كان أظهر للسامع.

الثالث: لنظم الكلام، نحو قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ للهِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّماً﴾ [الكهف:١-٢]، تقديره: أنزل على عبده الكتاب قيّماً ولم يجعل له عوجاً.

القسم الثاني: متشابه من جهة المعنى: كأوصاف يوم القيامة، وأوصاف الله جل وعلا من حيث الكيفية؛ فإن تلك الأوصاف لا تتصور إذا كان يحصل في نفوسنا صورة ما لم تحسّه أو ليس من جنسه، وهذا القسم يرجع إلى التشابه الحقيقي.

القسم الثالث: متشابه من جهتها، جهة اللفظ والمعنى: وهذا على خمسة أضرب:

١- من جهة الكمية، كالعموم والخصوص، نحو قوله تعالى ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾.

٢- من جهة الكيفية، كالواجب، والندب، نحو قوله تعالى ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣].

٣- من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ، نحو قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢].

٤- من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة:١٨٩].

٥- من جهة الشروط التي يصحّ بها الفعل ويفسد، كشروط الصلاة والنكاح.

قال الخطابي رحمه الله: وهذه الجملة إذا تصورت عُلِمَ أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم ا.هـ من كتاب "الإتقان"(٢/ ١٣).

مثاله فيما يتعلق بالله تعالى أن يتوهم واهم من قوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين.

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى أن يتوهم واهم تناقض القرآن، وتكذيب بعضه بعضاً حين يقول ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩] ويقول في موضع آخر ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨].

ومثاله فيما يتعلق برسول الله أن يتوهم واهم من قوله تعالى ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤] ظاهره أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان شاكاً فيما أُنزل إليه.

❊ ❊ ❊ ❊

= فالمتشابه سواء كان في العقيدة أو في الفقه، وقد ذكر العلامة العثيمين في هذه الرسالة أمثلة تتعلق بالمتشابه في العقيدة بعد ذكره التعريف.

(مَوقِفُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلمِ وَالزَّائِغِينَ مِنَ المُتَشَابِهِ)

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بيّنه الله تعالى فقال في الزائغين ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وقال في الراسخين في العلم ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]. فالزائغون يتخذون من هذه الآيات المتشابهات وسيلة للطعن في كتاب الله، وفتنة الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد الله تعالى به، فيَضِلون ويُضِلون.

وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بأن ما جاء في كتاب الله تعالى فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض؛ لأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] وما جاء مشتبهاً ردوه إلى المُحْكَم ليكون الجميع مُحكماً [١].

(١) الراسخون في العلم: رسخ الشيء: ثبت، وبابه خَضَعَ، وكل ثابت راسخ، ومنه الراسخون في العلم.

والراسخ في العلم: المتحقّق به الذي لا يعرضه شبهة، فالراسخون في العلم هم الموصوفون بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات:١٥]، وكذا قوله ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء:١٦٢]. انظر "مختار الصحاح"(مادة: رسخ) "المفردات" للراغب (مادة: رسخ).

أما الزائغون: الزيغ: هو الميل عن الاستقامة، تقول: رجلٌ زائغ، أي: مائل، وقوم زاغة وزائغون، ومنه زاغت الشمس وزاغت الأبصار. انظر "الجامع لأحكام القرآن"(٤/ ١٦) "المفردات"(مادة:زيغ).

روى الإمام البخاري برقم (٤٥٤٧) ومسلم برقم (٢٦٦٥) عن عائشة ﵂ قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ إلى قوله ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧] قالت: قال رسول الله ﷺ «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ».

=

ويقولون في المثال الأول: إن لله تعالى يدين حقيقتين على ما يليق بجلاله وعظمته لا تماثلان أيدي المخلوقِين، كما أنَّ لـه ذاتـاً لا تماثـل ذوات المخلـوقِين؛ لأن الله تعـالى يقـول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] (١).

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنة والسيئة كلتاهمـا بتقـدير الله عـز وجـل، لكـن الحسنة سببها التفضّل من الله تعالى على عباده، وأما السيئة فسببها فِعْل العبد، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشـورى:٣٠] فإضـافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه لا من إضـافته إلى مقـدِّره، أمـا إضـافة الحسـنة والسيئة إلى الله فمن باب إضافة الشيء إلى مقدِّره، وبهذا يزول مـا يـوهِم الاخـتلاف بـين الآيتين لانفكاك الجهة (٢).

= ❊مسألة: المتبعون للمتشابه أصناف: ذكرناهم في الشرح، فليراجع، وانظر "الجامع لأحكام القرآن"(٤/ ١٦-١٨).

وقد يسَّر الله تعالى لنا شرح الآية المذكورة بشرحٍ واسعٍ في الشرح، فليراجع.

(١) قوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]: يقول أهل العلم: إن لله تعالى يدين حقيقتين على ما يليق بجلاله وعظمته لا تماثلان أيدي المخلوقِين، كما أنَّ له ذاتاً لا تماثل ذوات المخلوقِين؛ لأن الله تعالى يقول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ردوا المتشابه إلى المحكم، وردوا قوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] إلى المحكم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ نفى المماثلة، وقوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ أثبت الصفة، وهذا يُعتبر رداً على الممثلة الذين يمثلون الله جل وعلا بخلقه، وعلى المعطلة والمحرِّفة الذين يحرفون معاني الصفات ويؤوّلونها على غير معناها. وللفائدة: راجع "الملل والنِّحَل"(١/ ١٠٤).

(٢) بيَّن الشيخ ﷺ موقف أهل العلم في هاتين الآيتين، ووجه الجمع بينهما ببيان مختصر واضح. =

ويقولون في المثال الثالث:

إن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يقع منه شك فيما أُنزل إليه، بل هو أعلم الناس به وأقواهم يقيناً كما قال الله تعالى في نفس السورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس:١٠٤] المعنى: إن كنتم في شكٍ منه فأنا على يقين منه، ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، بل أكفر بهم، وأعبد الله.

ولا يلزم من قوله ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ أن يكون الشك جائزاً على الرسول –صلى الله عليه وسلم– أو واقعاً منه، ألا ترى قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١] هل يلزم منه أن يكون الولد جائزاً على الله تعالى،

= وأضيف إلى ذلك: إضافة الحسنة إلى الله سبحانه وتعالى إضافة تكرّم وتفضّل وامتنان، يقول الله تعالى ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ [الشعراء:٢٢].

وإضافة السيئة إلى العبد إضافة شيء إلى سببه، كقوله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] وقوله تعالى ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥].

وأما إضافتها إلى الله جل وعلا؛ فهي إضافة شيء إلى مقدِّره، ففرق بين إضافة الشيء إلى سببه وإضافته إلى مقدِّره، وإذا انفكت الجهة زال التعارض؛ لأن التعارض إنما يكون فيما إذا ورد الشيئان على شيء واحد، أما مع انفكاك الجهة فلا تعارض.

*وهنا يستشكل الزائغون من القدرية وغيرهم لماذا كون الحسنات من الله والسيئات من النفس، والجميع مقدَّر؟

الجواب: أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله على هذا الإشكال أن الحسنات من الله والسيئات من النفس له وجوه، ذكرناها في الشرح، وانظر "التفسير الكبير" لابن تيمية (٣/ ٢٥١-٢٥٤) (٣/ ٢٥٠-٢٨٥) "بدائع التفسير"(٢/ ٣٩-٦٤).

قال الله تعالى ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَـنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣-٩٣].

ولا يلزم من قوله تعالى ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أن يكـون الامـتراء واقعـاً مـن الرسول –صلى الله عليه وسلم-؛ لأن النهي عن الشيء قد يوجَّـه إلى مَـنْ لم يقـع منـه، ألا ترى قوله تعالى ﴿وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِّ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧] ومن المعلوم أنهم لم يصدّوا النبي صلى الله عليه وسلم عـن آيات الله، وأن النبي –صلى الله عليه وسلم- لم يقع منه شرك.

والغرض من توجيه النهي إلى مَنْ لا يقع منه التنديد بما وقع مـنهم والتحـذير مـن منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباه وظن ما لا يليق بالرسول –صلى الله عليه وسلم[١] .

** * * **

(١) انظر"شرح أصول في التفسير"(ص:٢٤٤-٢٤٥-٢٤٦) "بدائع التفسير"(٢/ ٤١٠-٤١٢).

(أنوَاعُ التَّشَابُهِ فِي القُرآن)

التشابه الواقع في القرآن نوعان [١]:

أحدهما: حقيقي: وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله عز وجل، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات لكننا لا ندرك حقائقها وكيفيتها لقوله تعالى ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠] وقوله تعالى ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣] ولهذا لمّا سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] كيف استوى؟! قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة [٢]. وهذا النوع لا يُسأل عن استكشافه لتعذّر الوصول إليه.

---

(١) انظر "الإتقان"(٢/ ١١-١٢).

(٢) أخرجه الإمام البيهقي في "الأسماء والصفات" برقم (٨٦٦،٨٦٧) وأبو نُعيم في "الحلية"(٦/ ٣٢٥-٣٢٦) واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة"(٦٦٤) من طُرُقٍ؛ وهو أثر صحيح.

وثبت بنحوه عن ربيعة شيخ مالك، عند اللالكائي -أيضاً- برقم (٦٦٥) والبيهقي برقم (٨٦٨).

وجاء عن أمّ سلمة رضي الله عنها في ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، أخرجه اللالكائي (٦٦٣) وفيه: محمد بن أشرس: قال الذهبي: متهمٌ في الحديث، تركه الأخرم الحافظ وغيره ا.هـ من "الميزان"(٣/ ٤٨٥).

وانظر "مجموع فتاوى ابن تيمية"(٥/ ٣٦٥)، ومسألة الكلام على الاستواء ومناقشة أقوال المخالفين تُراجع من "مختصر الصواعق المرسلة"(٢/ ١٢٦-١٢٩) و"الفقه الأكبر بشرح قطف الثمر" للشيخ أبي عمرو الحجوري (١/ ٢٦٨-٢٧١).

النوع الثاني: نسبي: وهو ما يكون مشتبهاً على بعض الناس دون بعض، فيكون معلوماً للراسخين في العلم دون غيرهم.

وهذا النوع يُسأل عن استكشافه وبيانه لإمكان الوصول إليه، إذ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبيَّن معناه لأحد من الناس، قال الله تعالى ﴿هَـذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨] وقال ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] وقال ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٨-١٩] وقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

وأمثلة هذا النوع كثيرة، منها قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] حيث اشتبه على أهل التعطيل ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى، وادَّعوا أن ثبوتها يستلزم المماثلة، وأعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة (١).

(١) اشتبه على أهل التعطيل في هذه الآية ففهموا منها نفي الصفات إذ أن الله لا يماثله شيء، فينفون الصفات، وتعامى هؤلاء الحمقى عن قوله تعالى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾.

وأهل التعطيل على أربع طوائف:

الطائفة الأولى: غلاة الجهمية والفلاسفة، ومذهبهم الإنكار، حتى في حقِّ الإثبات والنفي، فنفوا عنه الوجود لئلاّ يشابه الموجودات، ونفوا العدم لئلا يشابه المعدومات!!.

الطائفة الثانية: الجهمية والقرامطة والباطنية، ومذهبهم إنكار الأسماء والصفات، ولا يصفون الله إلا بالنفي المجرّد عن الإثبات.

الطائفة الثالثة: المعتزلة ومن وافقهم من أهل الكلام، ومذهبهم إثبات الأسماء على جهة المجاز بالعقل، وأما الصفات فهم على جهة الإنكار فيه.

=

ومنها قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] حيث اشتبه على الوعيدية ففهموا منه أن قاتل المؤمن عمداً مخلدٌ في النار، وطردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى (١).

ومنها قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠] حيث اشتبه على الجبرية، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله، وادَّعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة، وأن فعل العبد نوعان: اختياري، وغير اختياري (٢).

= الطائفة الرابعة: الأشاعرة ومن وافقهم من الماتريدية، ومذهبهم إثبات الأسماء على وجه المجاز، وأثبتوا سبع صفات تُسمى صفات المعاني، وهي الحياة والكلام والبصر والسمعُ والإرادة والعلمُ والقدرة.

(١) لا يجوز تخليد صاحب الكبيرة في النار خلافاً للوعيدية وهم الخوارج والمعتزلة.

أما المعتزلة: فيقولون صاحب الكبيرة في الدنيا ليس بمؤمن ولا كافر، فهو بين منزلة من المنزلتين، وأما في الآخرة فمخلّدٌ في النار!.

وأما الخوارج: فقالوا صاحب الكبيرة كافرٌ في الدنيا، مخلّدٌ في النار في الآخرة، فهم أشدّ جرأة من المعتزلة، وهذا المذهب الذي ذهبوا إليه محض الضلال والانحراف والزيغ عياذاً بالله من ذلك.

(٢) الجبرية: هم الذين غلوا في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعلٌ حقيقة؛ بل هو في زعمهم لا حرية له، ولا اختيار، ولا فعل، فاتهموا ربهم بالظلم وتكليف العباد ما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على من ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث في تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي، ألا ساء ما يحكمون، تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً كبيراً. =

والراسخون في العلم أصحاب العقول يعرفون كيف يُخَرِّجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى فيبقى القرآن كله مُحْكَماً لا اشتباه فيه.

* * * *

= قوله (وأن فعل العبد نوعان: اختياري، وغير اختياري): الفعل الاختياري: كتعمد ارتكاب المعاصي ونحوها، وتكون بإرادة الإنسان واختياره.

والفعل الغير الاختياري: والذي يسمى الاضطراري كالرعشة من البرد أو المرض أو الخوف ونحوها؛ هذه لا تكون باختيار الإنسان، وكلها بقدر الله جل وعلا؛ بمعنى: أن العباد فاعلون، والله خالق أفعالهم.

وخلاصة ذلك: أن الراسخين في العلم يقولون: أفعال العباد مخلوقة لله عز وجل على الحقيقة، وهي أفعال العباد على الحقيقة، وهم قادرون على أفعالهم بقدرة حقيقية مؤثرة في وقوع الفعل منهم، والله الذي أقدرهم على أفعالهم على ذلك. انظر "وسطية أهل السنة بين الفرق"(ص:٣٧٩).

(الحكمة في تنوّع القرآن إلى محكم ومتشابه)

لو كان القرآن كله مُحْكَماً لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقاً وعملاً لظهور معناه وعدم المجال لتحريفه والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

ولو كان كله متشابهاً لفات كونه بياناً وهدى للناس، ولما أمكن العمل به وبناء العقيدة السليمة عليه.

ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات يرجع إليهن عند التشابه، وأخر متشابهات امتحاناً للعباد ليتبين صادق الإيمان ممن في قلبه زيغ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند الله تعالى، وما كان من عند الله فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل أو تناقض لقوله تعالى ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] وقوله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وأما مَنْ في قلبه زيغ فيتخذ من المتشابه سبيلاً إلى تحريف المُحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار، والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد كثيراً من المنحرفين في العقائد والأعمال يحتجون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة (١).

* * * *

(١) انظر "الاتقان"(٢/ ٣٣-٣٤).

(مُوهِمُ التَّعارُض فِي القُرآن [١])

التعارض أن تتقابل آيتان بحيث يمنع مدلول إحداهما مـدلول الأخـرى، مثـل أن تكون إحداهما مثبتة لشيء والأخرى نافية له [٢].

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما خـبري؛ لأنـه يلـزم كـون إحـداهما كذباً وهو مستحيل في أخبار الله تعـالى، قـال الله تعـالى ﴿وَمَـنْ أَصْـدَقُ مِـنَ اللَّهِ حَـدِيثًا﴾ [النساء:٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيْلاً﴾ [النساء:١٢٢]، ولا يمكـن أن يقـع التعـارض بين آيتين مدلولهما حُكْمِي؛ لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى، قال الله تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِـنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقـرة:١٠٦] [٣]، وإذا ثبـت النسـخ كـان حكـم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.

---

(١) تعبير طيب؛ فيه أن القرآن ليس فيه تعارض ولا تناقض بين آياته، وإنما يحصل التَّوَهُّم في ذلك، ولا يحصل التوهم في ذلك إلا لأمور:
١- قلة الفهم، وعدم دراسة القرآن وتعلّمه وفهمه على أيدي العلماء الراسخين.
٢- الجهل بمعناه.
٣- تتبّع المتشابه، وسوء القصد مما يؤدي إلى زيغ القلوب.
ولا يمكن أن يحصل التعارض بين الآيات أبداً، قال الله تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].
انظر "فتح القدير" للشوكاني (١/ ٧٨٢). انظر "الإتقان"(٢/ ٨٥).

(٢) هذا هو التعارض الممنوع في القرآن، التقابل من كل وجه بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى. وأما إذا كان التقابل من بعض الوجوه وليس من الكل؛ فليس بتعارض. انظر "الإتقان"(٢/ ٨٤-٨٥) "شرح أصول في التفسير"(ص:٢٥٥).

(٣) الكلام نوعان: الأخبار والأحكام.

=

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك فحاول الجمع بينهما، فإن لم يتبيّن لك وجب عليك التوقّف وتكل الأمر إلى عالمه (١).

= والخبر: هو الذي يحتمل الصدق والكذب لذاته.
وأما الأحكام: فتعريفها بالحكم كما هو عند الفقهاء على أقسام: واجب، ومندوب، وجائز، ومحرم، ومكروه.
انظر "مذكرة في أصول الفقه" للشنقيطي (ص:٥-٨، و١٤٦) "التحقيقات في شرح الورقات" للكيلاني الشافعي (ص:٩٥-١٠٠، و٤٥١-٤٥٥) "شرح نظم الورقات" للعثيمين (ص:٢٩-٣٢، و١٦٢).
* أخبار القرآن: أخبار القرآن كلها صدق، وليس بين آيات الأخبار تعارض أبداً، قال تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهَّ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهَّ قِيْلاً﴾ [النساء:١٢٢]، وهي الإخبار عن قصص المتقدمين، كقصص الأقوام السابقة، وقصص الكفار والمنافقين، وقصص المؤمنين، والإخبار عن الحوادث وأمور البعث والنشور، والحساب والعقاب، والجنة والنار، ونحوها، هذه كلها أخبار صدق، لا يقع فيها التعارض والتناقض أبداً.
وإذا حصل ما يوهم التعارض بين آيتين فإنه يحصل الجمع بينهما.
* وأما الأحكام: فكذلك ليس فيها تناقض ولا تعارض أبداً، وما أوهم ذلك بين آيتين فإننا:
أولاً: نجمع بينهما، فإن تعذَّر الجمع انتقلنا للآخر وهو:
ثانياً: ننظر في التاريخ، فيكون المتأخر ناسخاً للمتقدِّم، لهذا فالأحكام يدخلها النسخ بخلاف الأخبار، يقول الله تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦].
قال أبو إسحاق الاسفرايني رحمه الله: ولا يوجد في القرآن آيتان متعارضتان تخلوان عن هاذين الوصفين ا.هـ من "الإتقان"(٢/ ٨٤) وذكرنا أمثلة لما ذكر جميعاً في الشرح، ولله الحمد.

(١) أما في الأخبار فنعم، وأما في الأحكام فننظر في التاريخ ليمكن النسخ، كما تقدم، وإذا عُدم الأمران فإنه يُكل الأمر إلى عالمه، لما روى الإمام أحمد رحمه الله في "المسند"(٢/ ١٨١)، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جلسوا عند باب من أبوابه، فكرهنا =

وقد ذكر العلماء –رحمهم الله– أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، وبيّنوا الجمع في ذلك، ومِنْ أجمع ما رأيتُ في هذا الموضوع كتاب "دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب" للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى (١).

فمن أمثلة ذلك: قوله تعالى في القرآن ﴿هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وقوله فيه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين، وفي الثانية عامة للناس، والجمع بينهما أن الهداية في الأولى

= أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة، إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول «مَهْلًا يَا قَوْمِ، بِهَذَا أُهْلِكَتِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ».

هذا الحديث حسن، وقد حسَّنه العلامة الوادعي رحمه الله في تحقيقه لـ "تفسير ابن كثير"(٢/ ٤٣٩) فلله الحمد.

وقد جاء أنهم كانوا يتكلمون في القدر، فغضب النبي ﷺ فقال «مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ؟ بِهَذَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رواه الإمام أحمد برقم (٢،١٧٨) وابن ماجه برقم (٨٥)، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، وهو حسن، وقد حسّنه الإمام الألباني رحمه الله في تحقيقه على "سنن ابن ماجه"، والإمام الوادعي في المرجع السابق.

(١) كتاب الشنقيطي رحمه الله مطبوع في جزء، وهو مطبوع ضمن تفسير "أضواء البيان" (ج١٠)، وهناك كتُبٌ أخرى أُلِّفَت في هذا الباب، ككتاب "فوائد مشكل الآيات" للعز بن عبد السلام، وكتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة، وكتاب "تفسير آيات أُشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب بل لا يوجد فيها إلا ما هو خطأ" لشيخ الإسلام ابن تيمية.

فيُستفاد من هذه الكتب، ويُرجع إليها لأهميتها، وحلاوة موضوعها، والله الموفق.

هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية هداية التبيين والإرشاد.

ونظير هاتين الآيتين: قوله تعالى في الرسول –صلى الله عليه وسلم- ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]، وقوله فيه ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، فالأولى هداية التوفيق، والثانية هداية التبيين.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨] وقوله ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ﴾ [آل عمران:٦٢]، وقوله ﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهَّ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣]، وقوله ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهَّ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١]، ففي الآيتين الأوليين نفي الألوهية عما سوى الله تعالى، وفي الأُخريين إثبات الألوهية لغيره.

والجمع بين ذلك: أن الألوهية الخاصة بالله عز وجل هي الألوهية الحق، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة، لقوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨] وقوله ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦]، ففي الآية الأولى نفي أن يأمر الله تعالى بالفحشاء وظاهر الثانية أن الله تعالى يأمر بما هو فسق.

والجمع بينهما: أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، والله تعالى لا يأمر شرعاً بالفحشاء لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل:٩٠] والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني والله تعالى يأمر كوناً بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ

كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

ومَنْ رامَ زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشنقيطي المشار إليه آنفاً.

❋ ❋ ❋ ❋

(القَسَمُ)

القَسَم: بفتح القاف والسين: اليمين، وهو تأكيد الشيء بذكر معظَّم بالواو أو إحدى أخواتها[1].

وأدواته ثلاث:

---

(١) القَسَمُ: بفتح القاف والسين: وهو اليمين، وسُمِّي يميناً لأن العرب كانوا إذا تخاصموا ضرب كل واحدٍ منهم يمينه على يمين صاحبه.

انظر "كشاف اصطلاحات الفنون"(٤/ ٤١٨) "معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية"(٣/ ٨٧-٨٨) لمحمود عبد الرحمن.

وله أسماء متعددة، منها: القسم، اليمين، الحلف، كما بينا ذلك بأدلته في الشرح.

قوله (وهو تأكيد الشيء بذكر معظَّم): لا يُحلف بشيء إلا وهو عظيم، فالحلف لا يكون إلا بذكر معظَّم؛ لهذا لا يجوز القسم والحلف إلا بالله جل وعلا.

فمن حلف بغير الله مجرّد حلف فإنه يكون واقعاً في الشرك الأصغر؛ لأن الحلف لا يكون إلا بمعظَّم.

ومن حلف بغير الله معظِّماً للمحلوف به كتعظيم الله أو أشد فقد وقع في الشرك الأكبر عياذاً بالله، كما بينّا ذلك بأدلته في الشرح.

* أقسم الله سبحانه وتعالى على أمور عظيمة:

١- التوحيد ٢- القرآن الكريم وأنه حق ٣- الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ٤- الجزاء والوعد والوعيد ٥- حال الإنسان. انظر "أقسام القرآن" لابن القيم (ص:٤-٧) "الإتقان"(٢/ ٣٧٤).

وهناك مسائل متعلقة بقسم الله تعالى ذكرناها في الشرح.

قوله (بالواو أو بإحدى أخواتها): أخوات الواو هي: الباء والتاء.

الواو، مثل قوله تعالى ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات:٢٣]، ويُحذف معها العامل وجوباً ولا يليها إلا اسمٌ ظاهر [1].

والباء، مثل قوله تعالى ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة:١]، ويجوز معها ذكر العامل كما في هذا المثال، ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٥٦]، ويجوز أن يليها اسم ظاهر كما مثّلنا، وأن يليها ضمير كما في قولك: الله ربي وبه أحلف لينصرن المؤمنين [2].

والتاء، مثل قوله تعالى ﴿تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل:٥٦]، ويُحذف معها العامل وجوباً، ولا يليها إلا اسم الله أو رب، مثل: تَرَبِّ الكعبة لأحجنَّ إن شاء الله [3].

والأصل ذكر الْمُقْسم به، وهو كثير كما في الْمُثُل السابقة.

وقد يحذف وحده، مثل قولك: أحلف عليك لتجتهدنّ.

---

(١) بدأ المؤلف رحمه الله بـ "الواو" لكثرة استعماله؛ وإلا الأصل في حروف القسم "الباء".

*خصائص الواو: ١- حذف العامل وجوباً، وهي لفظ "أقسم". ٢- لا يليها إلا اسم ظاهر، ولا يجوز أن يليها ضمير.

(٢) الباء هي الأصل في القسم، وهي أوسع أدوات القسم.

*خصائص الباء: ١- جواز ذكر العامل وحذفه. ٢- يليها اسم ظاهر، ويجوز أن يليها ضمير.

(٣) خصائص التاء: ١- يُحذف معها العامل وجوباً. ٢- لا يليها إلا اسم الله أو ربّ.

قوله (تَرَبِّ الكعبة لأحجنَّ إن شاء الله): هذه اللغة "تربّ" شاذة، فلا يُقال "تربّ" بل يُقال "تالله" وكفى.

وقد يحذف مع العامل، وهو كثير، مثل قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨].

والأصل ذكر المُقْسَم عليه، وهو كثير، مثل قوله تعالى ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧].

وقد يُحذف جوازاً، مثل قوله تعالى ﴿ق وَالقُرْآنِ المَجِيدِ﴾ [ق:١] وتقديره: لَيُهْلكُنَّ.

وقد يحذف وجوباً إذا تقدّمه أو اكتنفه ما يُغني عنه، قاله ابن هشام في "المغني" ومُثِّل له بنحو: زيد قائم والله. وزيد والله قائم.

وللقسم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المُقسم به.

والثانية: بيان أهمية المُقسم عليه وإرادة توكيده، ولذا لا يحسن إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون المُقسم عليه ذا أهمية.

الثاني: أن يكون المخاطب متردداً في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطب مُنكِراً له [١].

* * * *

(١) انظر "شرح أصول في التفسير"(ص:٢٦٦).

(القَصَص)

القصص والقص: لغة: تتبع الأثر.

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل يتبع بعضها بعضاً [(١)].

وقصص القرآن أصدق القصص لقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]؛ وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

وأحسن القصص لقوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف:٣]؛ وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القصص لقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١] [(١)]؛ وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

---

(١) القصص والقص: لغة: تتبع الأثر، يُقال: قصصت أثره، أي: تتبّعته.

والقصص: الأثر، قال تعالى ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤]، أي: رجعا يقصّان الأثر الذي جاء به. والقصص كذلك: الأخبار المتتبَّعة، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران:٦٢].

انظر "المفردات"(مادة: قصص) "مختار الصحاح"(مادة: قصص).

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل يتبع بعضها بعضاً.

لو قُلتَ: زيدٌ قائم، ثم سكتَّ، هذه ليست بقصة؛ لأنها ليست قضية ذات مراحل يتبع بعضها بعضاً، لكن لو قُلتَ: سافر زيد إلى بلدة كذا، فأقام فيها عدة أيام، ثم مضى إلى بلدة كذا، فأقام فيها، وبنى له بيتاً، وطلب العلم، واستمرَّ حتى فتح الله عليه، وصار عالماً، ...الخ؛ فهذه صارت قصة لأنها ذات مراحل يتبع بعضها بعضاً. انظر "شرح أصول في التفسير"(ص:٢٦٨).

وهي ثلاثة أقسام:

قسم عن الأنبياء والرسل وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.

وقسم عن أفراد وطوائف جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وغير ذلك.

وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النَّضير، وزيد بن حارثة، وأبي لهب، وغير ذلك.

وللقصص في القرآن حِكَمٌ كثيرة عظيمة، منها:

١- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص، لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر:٤-٥] (٢).

٢- بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين، لقوله تعالى عن المكذبين ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود:١٠١].

٣- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين، لقوله تعالى ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر:٣٤-٣٥].

= (١) انظر "الجامع لأحكام القرآن"(٩/ ١٠٢).

(٢) انظر "الجامع لأحكام القرآن"(١٧/ ١١٣-١١٤).

٤- تسلية النبي –صلى الله عليه وسلم- عمّا أصابه من المكذبين له، لقوله تعالى ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر:٢٥-٢٦].

٥- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين، وانتصار مَنْ أُمِروا بالجهاد، لقوله تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨] وقوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

٦- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم، لقوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد:١٠].

٧- إثبات رسالة النبي –صلى الله عليه وسلم-؛ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لقوله تعالى ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا﴾ [هود: ٤٩]، وقوله ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ﴾ [إبراهيم:٩] (١).

* * * *

(١) وقد ذكرنا أمثلةً كثيرةً في الشرح، ولله الحمد.

(تكرار القصص)

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة، مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف، ومنها ما يأتي متكرراً حسب ما تدعو إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد بل يختلف في الطول والقِصَر، واللِّين والشدَّة، وذكر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر، ومن الحكمة في هذا التكرار:

١- بيان أهمية تلك القصة؛ لأن تكرارها يدل على العناية بها.

٢- توكيد تلك القصة لتثبيت قلوب الناس.

٣- مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالباً فيما أتى من القصص في السور المكية، والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤- بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال.

٥- ظهور صدق القرآن وأنه من عند الله تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض [١].

* * * *

(١) يُراجع شرحنا لهذه الرسالة.

(الإسْرَائِيلِياتُ)

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود -وهو الأكثر- أو النصارى [1].

وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ما أقرَّه الإسلام وشهد بصدقه فهو حق.

مثاله: ما رواه البخاري وغيره [2]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على

(١) لفظ الإسرائيليات جمعٌ، مفردها: إسرائيلية.

نسبة إلى بني إسرائيل: وهي الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل.

وإسرائيل: هو نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام.

والإسرائيليون يُنسبون إلى يعقوب، وهم بنو يعقوب ومن تناسل منهم فيما بعد.

وقد غلبت هذه اللفظة على اليهود، وذُكروا كثيراً في القرآن، كما ذكرنا بعض الآيات في الشرح.

قول المؤلف (من اليهود -وهو الأكثر- أو النصارى): أقول: الإسرائيليات التي يعني بها أهل التفسير والحديث؛ ما هو أوسع وأشمل مما نُقل عن اليهود، فيعنون بها ما يعمّ من الأخبار اليهودية والنصرانية وغيرها. وإنما أطلقوا عليها بالإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني.

وغُلِّب الجانب اليهودي على الجانب النصراني وغيره لأمور ذكرناها في الشرح.

انظر "موسوعة الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير" لمحمد أحمد عيسى (١/ ٧٩-٨٠) "التفسير والمفسرون" للدكتور الذهبي (١/ ١٦٥-١٦٦) "أسباب الخطأ في التفسير" للدكتور طاهر(١/ ١٦٠-١٦١) "قلائد الجوهر والتيجان" للشيخ أبي عمرو (ص:٣٢١).

(٢) البخاري برقم (٤٨١١) ومسلم برقم (٢٧٨٦).

إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧]» (١).

الثاني: ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل (٢).

مثاله: ما رواه البخاري (٣)، عن جابر رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها مِنْ ورائها جاء الولد أحول. فنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣].

الثالث: ما لم يقرّه الإسلام ولم ينكره فيجب التوقف فيه (٤)، لما رواه البخاري (١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسِّرونها بالعربية

(١) في هذا النوع يقول النبي ﷺ «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ**» رواه البخاري برقم (٣٤٦١)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) انظر "البداية والنهاية"(١/ ٧).

(٣) البخاري برقم (٤٥٢٨) ومسلم برقم (١٤٣٥).

(٤) هذا النوع على ضربين:

الضرب الأول: مسكوت عنه، وليس في شرعنا ما يؤيّده، ولا ما ينقضه؛ ولكنه أقرب إلى الخرافة والكذب، وتحيله العقول السليمة، وتنكره الأفهام الصحيحة؛ فهذا لا يجوز التحدث به.

=

لأهل الإسلام، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُم» وقولوا ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ الآية [العنكبوت:٤٦]. ولكن التحدّث بهذا النوع جائز إذا لم يخش محذور [٢]؛ لقول النبي –صلى الله عليه وسلم– «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ» رواه البخاري [٣].

= الضرب الثاني: مسكوت عنه؛ لكن العقول السليمة لا تحيله، ولا تستبعده، ولا يغلب على الظنون كذبه، فهذا يجب التوقف في مثله، فلا يُحكم عليه بصدق ولا كذب. وعليه يتنزّل حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي ذكره المصنف.

انظر "فتح الباري"(٨/ ٢١٤).

(١) البخاري برقم (٤٤٨٥).

(٢) التحدث بهذا النوع يعني الضرب الثاني من هذا النوع، والذي يظهر أنه يتوقف في التحديث به، كما توقفنا في قبوله، والله أعلم. وراجع تحقيق الإمام الوادعي لتفسير ابن كثير (١/ ١٣).

(٣) رواه البخاري برقم (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

أضف إلى هذه الأنواع نوعاً رابعاً، وهو: ما جاء في شرعنا سواء كان في القرآن أو في السنة، فهو يُعتبر شرعاً لنا؛ لأن شرعنا حثَّ عليه، وأمر به، ورغَّب فيه وذكره.

أما في القرآن: فكقصة موسى وعيسى –عليهما الصلاة والسلام– مع بني إسرائيل.

وأما في السنة: فكحديث أبي هريرة رضي الله عنه، في قصة الأبرص والأقرع والأعمى، في صحيح البخاري برقم (٣٤٦٤) ومسلم برقم (٢٩٦٤)، وغيرها.

انظر "فتح الباري"(٦/ ٦٠٩) (٨/ ٢١٣-٢١٤) (١٣/ ٤٠٧-٤٠٩) "اقتضاء الصراط المستقيم"(ص:١٧٢-١٧٣) "البداية والنهاية"(١/ ٦-٧) "تفسير ابن كثير" عند سورة "ق" "شرح أصول في التفسير" للعثيمين (ص:٢٨٦-٢٨٩) "مقدمة التفسير" للنجدي (ص:١٨٣-١٨٤) "قلائد الجوهر والتيجان" للشيخ أبي عمرو (ص:٣٢٢٠٣٢٦) "التفسير =

وغالب ما يُروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدّين كتعيين لَوْن كلب أصحاب الكهف ونحوه [١].

وأما سؤال أهل الكتاب عن شيء من أمور الدّين فإنه حرام، لما رواه الإمام أحمد [٢]، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فإنكم إما تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق، وإنه لو كان موسى حيَّاً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني».

وروى البخاري [٣]، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم -صلى الله عليه وسلم- أحدث الأخبار بالله مَحْضَاً لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتاب الله وغيَّروا وكتبوا بأيديهم، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً. أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل

= والمفسرون"(١/ ١٧٩-١٨٠) "موسوعة الإسرائيليات"(١/ ١٠٤-١٠٥) "أسباب الخطأ في التفسير"(١/ ١٦٢-١٦٥).

(١) انظر "شرح أصول في التفسير"(ص:٢٨٩).

(٢) في "المسند"(٣/ ٣٨٧)، وفي سنده: مجالد بن سعيد الهمداني، وهو ليس بالقوي، وقد تغيَّر في آخر عمره. "التقريب"(٦٥٢٠)، وتابعه: جابر بن يزيد الجُعفي، عند أحمد (١٥٣٠٣) وهو: ضعيف، رافضي. "التقريب"(٨٨٦)، لكن الحديث حسن له شواهد تقوي الطريق الأولى، والله أعلم. انظر "الفتح"(١٣/ ٤٠٨).

(٣) رواه البخاري برقم (٢٦٨٥) و(٧٣٦٣) و(٧٥٢٢).

إليكم. (١)

❋ ❋ ❋ ❋

(١) هذا النهي إنما هو في سؤالهم عمّا لا نصّ فيه؛ لأن شرعنا مكتفٍ بنفسه... "الفتح"(١٣/ ٤٠٨)، وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ الإجماع على تحريم ذلك في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم"(ص:١٧٢-١٧٣).

❋وأما قوله تعالى ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس:٩٤]، فليس هذا سؤال استعلام؛ ولكنه سؤال إثبات لما نزل، ثم إن هذه القضية –أعني الشرطية– إن كنت في شك لم ترد، النبي ﷺ لم يشك ولم يسأله. "شرح أصول في التفسير"(ص:٢٩١).

❋مسألة: هل سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا جائز؟

الجواب: نعم جائز، كما في "فتح الباري"(١٣/ ٤٠٨)، والله تعالى أعلم.

(موقف العلماء من الإسرائيليات)

اختلفت مواقف العلماء ولا سيما المفسرون من هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء:

أ- فمنهم مَن أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأى أنه بذكر أسانيدها خرج من عهدتها، مثل ابن جرير الطبري.

ب- ومنهم مَنْ أكثر منها وجرَّدها من الأسانيد غالباً، فكان حاطب ليْل، مثل البَغَويِّ؛ الذي قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن "تفسيره": إنه مختصر من الثّعلبي، لكنّه صانه عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة. وقال عن الثعلبي: إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

ج- ومنهم مَنْ ذكر كثيراً منها وتعقَّب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار، مثل ابن كثير.

د- ومنهم من بالغ في ردها ولم يذكر منها شيئاً يجعله تفسيراً للقرآن، كمحمد رشيد رضا [١].

* * * *

(١) بيَّنا في الشرح كلَّ ذلك، مع الكلام على بعض التفاسير المنتقدة، فليرجع إليه.

تنبيه: محمد رشيد رضا طُعِنَ في منهجه، وعليه مآخذ كبيرة، وقد ردَّ عليه الإمام مقبل الوادعي، في كتابه "ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السِّحر، وبيان بُعْد محمد رشيد رضا عن السلفية"، فليُرجع إليه.

(الضَّمِيرُ)

الضمير: لغة: من الضُّمور وهو الهزال لقلّة حروفه، أو من الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره.

وفي الاصطلاح: ما كُني به عن الظاهر اختصاراً، وقيل: ما دل على حضور أو غيبة لا من مادتها (١).

فالدال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وُضع للمتكلم مثل ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ﴾ [غافر:٤٤] (٢).

---

(١) الضمير: لغة: من الضُّمور وهو الهزال لقلّة حروفه، أو من الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره؛ وكلاهما صحيح.

وفي الاصطلاح: ما كُني به عن الظاهر اختصاراً، وقيل: ما دل على حضور أو غيبة لا من مادتها.

وقد عرَّفه النحْويُّون: بما لا يدل على المراد منه إلا بقرينة تكلُّمٍ أو خطاب أو غيبة.

وقوله (ما كُني به عن الظاهر اختصاراً): أي: ما جاء كناية عن الظاهر اختصاراً، فإذا قلت: عمرو ضربه ذو بطن "به" فهي نابت عن عمرو، اختصاراً.

قوله (وقيل: ما دل على حضور أو غيبة لا من مادتها): هذا تفسير ابن مالك في الألفية حيث قال:

فما لذي غَيبةٍ أو حضورِ   كَأَنتَ وَهْوَ سَمِّ بالضَّميرِ

وقوله (من مادتها): يعني لا نقول "حضر" إنه ضمير، ولا "غاب" إنه ضمير؛ لأن دلالة حضر على الحضور من المادة، ودلالة غاب على الغيبة من المادة أيضاً. انظر "شرح أصول في التفسير"(ص:٢٩٤).

(٢) الضمير هو "الياء" في قوله ﴿أَمْرِي﴾ ضمير عائدٌ إلى المتكلم الحاضر.

الثاني: ما وضع للمخاطب مثل ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٧] (١).

وهذان لا يحتاجان إلى مرجع (٢) اكتفاءً بدلالة الحضور عنه.

والدال على الغائب: ما وُضع للغائب، ولا بد له من مرجع يعود عليه.

والأصل في المرجع أن يكون سابقاً على الضمير لفظاً ورُتْبَةً ، مطابقاً له لفظاً ومعنى (٣)، مثل ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ [هود:٤٥] (٤).

وقد يكون مفهوماً من مادة الفعل السابق، مثل ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨] (٥).

وقد يسبق لفظاً لا رتبة، مثل ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ [البقرة:١٢٤] (٦).

---

(١) الضمير هو "التاء" في قوله ﴿أَنْعَمْتَ﴾.

(٢) أي: الضمير.

(٣) السبق: إمَّا باللفظ أو الرُّتبة، والمطابقة: إمَّا باللفظ أو المعنى.

(٤) مثل ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ [هود:٤٥]، "الهاء" في قوله ﴿رَبَّهُ﴾ عائدة إلى نوح عليه الصلاة والسلام، ونوح: سابق لفظاً على الضمير "الهاء"، وسابقٌ رتبةً لأنه فاعل، والفاعل مُقدَّمٌ على المفعول، فهو مقدّم في الرّتبة.

(٥) مثل ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨]، مادة الفعل هنا، هي: العدل، من قوله ﴿اعْدِلُوا﴾، والضمير قوله ﴿هُوَ﴾.

(٦) "الهاء" في قوله ﴿رَبُّهُ﴾ ضمير عائد إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، و ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ سبق لفظاً لا رتبة؛ لأنه مفعول، والمفعول متأخرٌ رتبة ويكون بعد الفاعل.

وقد يسبق رتبةً لا لفظاً، مثل "حمل كتابَه الطالبُ" (١).

وقد يكون مفهوماً من السياق، مثل ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء:١١]، فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ (٢).

وقد لا يطابق الضمير معنى، مثل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾ [المؤمنون:١٢-١٣]، فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ؛ لأن المجعول نطفة ليس الإنسان الأول (٣).

وإذا كان المرجع صالحاً للمفرد والجمع جاز عَوْد الضمير عليه بأحدهما، مثل ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ

---

(١) "الهاء" في قوله "كتابَه" ضمير عائد إلى الطالب، والطالب متأخر لفظاً؛ لأنه جاء بعد الكتاب، لا رتبة لأنه فاعل والكتاب مفعول، والفاعل مقدّم رتبة على المفعول.

(٢) ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء:١١]، الضمير يعود على الميت المفهوم من قوله ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، "الهاء" في قوله ﴿وَلأَبَوَيْهِ﴾ ضمير عائد إلى الميت المفهوم من قوله ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، وسياق الآية قال تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

(٣) الضمير في قوله ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائدٌ على الإنسان لفظاً لا معنى؛ لأن المجعول نطفة ليس الإنسان الأول، يعني: آدم، ولو قلنا الضمير عائد على الإنسان معنى لا لفظاً لصار المعنى: أن آدم تحوَّل إلى نطفة وصار في بطن الأمهات، وهذا لا يستقيم أبداً، وهو منكر، لكن نقول: الضمير عائد إلى الإنسان لفظاً لا معنى.

أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١] (١).

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت، مثل ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:٥-١٠]، فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شديد القوى وهو جبريل (٢).

والأصل عود الضمير على أقرب مذكور؛ إلا في المتضايفين فيعود على المضاف؛ لأنه المتحدث عنه، مثال الأول ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدَىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء:٢] (٣).

ومثال الثاني: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل:١٨] (٤).

---

(١) قوله ﴿وَمَنْ﴾ شرطية تصلح للواحد والجماعة، و"الهاء" في قوله ﴿يُدْخِلْهُ﴾ ضمير عائد إلى ﴿مَنْ﴾ باعتبار المفرد، و إلى ﴿خَالِدِينَ﴾ باعتبار الجمع، لهذا ﴿مَنْ﴾ لفظها مفرد، ومعناها جمعٌ.

(٢) ضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شديد القوى وهو جبريل، كما تقدّم في بداية الكتاب في بيان صفة جبريل –عليه السلام–، وأما "الهاء" في قوله ﴿عَبْدِهِ﴾ فهي عائدة إلى الله جل وعلا، لا إلى جبريل.
وقد أعدّ أهل العلم اتحاد مرجع الضمائر قاعدةً، إلا إذا جاء دليل يصرفها عن هذا، كما ذكر الشيخ العثيمين رحمه الله في "شرحه"(ص:٢٩٨).

(٣) "الهاء" في قوله ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ عائدٌ إلى أقرب مذكور وهو ﴿الْكِتَابَ﴾.

(٤) "الهاء" في قوله ﴿تُحْصُوهَا﴾ ضمير عائدٌ إلى المضاف ﴿نِعْمَتَ﴾؛ بدليل التأنيث في قوله ﴿تُحْصُوهَا﴾.

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه.

* * * *

(الإظهار في موضع الإضمار)

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير؛ لأنه أبين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير في قوله تعالى ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥] عن عشرين كلمة المذكورة قبله [١].

وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يُسمّى "الإظهار في موضع الإضمار".

وله فوائد كثيرة تظهر بحسب السياق منها:

١- الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

٢- بيان علة الحكم.

٣- عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك: قوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَّ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨]، ولم يقل فإن الله عدوٌ له؛ فأفاد هذا الإظهار:

١- الحكم بالكفر على من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال.

٢- أن الله عدوٌ لهم لكفرهم.

٣- أن كل كافر فالله عدوٌ له [٢].

مثال آخر: قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ

(١) "الهاء" في قوله ﴿لَهُمْ﴾ عائد لجميع ما ذُكر قبل، وهذا أخصر من أن يقول أعد للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات... الخ، وأبين للمعنى.

(٢) هذا واضحٌ.

الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٧٠] ولم يقل إنا لا نضيع أجرهم، وأفاد ثلاثة أمور:

١ - الحكم بالإصلاح للذين يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة.

٢ - إن الله آجرهم لإصلاحهم.

٣- إن كل مصلح فله أجر غير مضاع عند الله تعالى [(١)].

وقد يتعيَّن الإظهار كما لو تقدم الضمير مرجعان يصلح عوده إلى كل منها والمراد أحدهما، مثل: اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم، إذ لو قيل وبطانتهم لأوهم أن يكون المراد بطانة المسلمين.

❊ ❊ ❊ ❊

(١) هذا كذلك واضحٌ.

(ضمير الفصل)

ضمير الفصل حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بـين المبتـدأ والخـبر إذا كانـا معرفتين.

ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى ﴿إِنَّنِـي أَنَـا اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَـا﴾ [طـه:١٤] (١)، وقوله ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥].

وبضمير المخاطب كقوله تعالى ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧] (٢).

وبضمير الغائب كقوله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥] (٣).

وله ثلاث فوائد:

الأولى: التوكيد: فإن قولك "زيدٌ هو أخوك"؛ أوكد من قولك "زيدٌ أخوك" (٤).

الثانية: الحصر؛ وهو اختصاص ما قبله بما بعده، فإن قولك "المجتهد هو النـاجح" يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح (٥).

---

(١) ضمير الفصل هو "الياء" الواقع بين المبتدأ والخبر، والضمير معرفة، واسم الجلالة "الله" معرفة. هذا بالنسبة لضمير المتكلم.

(٢) ضمير الفصل هو ﴿أَنْتَ﴾ وهو واقع بين المبتدأ والخبر، وكلاهما معرفة.

(٣) ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ وهو واقع بين المبتدأ والخبر، وكلاهما معرفتان، "أولاء" اسم إشارة وهو معرفة، و"المفلحون" محلى بـ"أل"، بين مبتدأ وخبر.

(٤) ضمير الفصل "هو" وقع بين مبتدأ وخبر معرفتين، وأفاد التوكيد.

(٥) ضمير الفصل "هو" وقع بين مبتدأ وخبر معرفتين، وأفاد الحصر، فقولك "المجتهد هو الناجح"؛ أفاد الاختصاص بالنجاح للمجتهد، وغير المجتهد ليس بناجح.

الثالثة: الفصل، أي: التمييز بين كون ما بعده خبراً أو تابعاً، فإن قولك: زيد الفاضل يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد والخبر منتَظَر، ويُحتمَل أن تكون الفاضل خبراً، فإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعيّن أن تكون الفاضل خبراً لوجود ضمير الفصل [(١)].

* * * *

(١) هذا واضحٌ.

(الالتفات)

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر، وله صورٌ منها:

١- الالتفات من الغيبة إلى الخطاب: كقوله تعالى ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٢-٥]، فحوَّل الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله ﴿إِيَّاكَ﴾.

٢- الالتفات من الخطاب إلى الغَيْبة: كقوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس:٢٢] فحوّل الكلام من الخطاب إلى الغيبة في قوله ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾.

٣- الالتفات من الغَيْبة إلى التكلّم: كقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢]، فحوّل الكلام من الغيبة إلى التكلّم في قوله ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

٤- الالتفات من التكلّم إلى الغيبة: كقوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر:١-٣]، فحوّل الكلام من التكلّم إلى الغيبة في قوله ﴿لِرَبِّكَ﴾.

وللالتفات فوائد منها:

١- حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢- حمله على التفكير في المعنى؛ لأن تغيُّر وجه الأسلوب يؤدي إلى التفكير في السبب.

٣- دفع السآمة والملل عنه؛ لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد يؤدي إلى الملل غالباً.

وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره.

أما الفوائد الخاصة فتتعيّن في كل صورة حسب ما يقتضيه المقام [(١)].

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. [(٢)].



❋ ❋ ❋ ❋

(١) هذا كلٌّ واضحٌ، وراجع الشرح. والحمد لله.

(٢) أسأل الله تعالى بمنِّه وكرمه وفضله وجوده وإحسانه أن ينفع بهذا التعليق المسلمين، وأن يجزي صاحب الرسالة خير الجزاء وأن يسكننا وإياه في جنات الخلد، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا به، والحمد لله رب العالمين.

كتبه:
أبو عبد الرحمن معاذ بن أحمد بن فؤاد الزَّعيم
اليمن – إب – حُبَيش
بتأريخ ١/ ربيع الثاني/ لعام ١٤٣٦ هـ
ثمَّ تمَّت المراجعة لهذه الطبعة الثانية يوم السبت بتأريخ ١٤/ من شهر محرَّم/ لعام:١٤٣٨هـ
في مركز الإمام الوادعي بـ(ماتر – إب).

الفِهرَسُ

مُقَدِّمَةُ الطَّبعَةِ الثَّانِيةِ..٥
كَلِمَةُ شُكْرٍ ٦
تَرْجَمَةٌ مُخْتَصَرَةٌ لِلإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ العُثَيمِينَ رحمه الله ١٣
المُقَدِّمَةُ..٢١
القُرْآنُ الكَرِيمُ..٣٠
نُزُولُ القُرْآنِ ٤٣
أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ..٥١
نَزُولُ القُرآنِ ابْتِدَائِي وَسَبَبِي ٥٥
فَوَائِدُ مَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ..٥٧
عُمُومُ اللفْظِ وَخُصُوصُ السَّبَبِ ٦٢
المَكِيُّ وَالمَدَنِيُّ..٦٤
الحِكْمَةُ مِنْ نُزُولِ القُرْآنِ مُفَرَّقاً..٦٩
تَرْتِيبُ القُرْآنِ ٧١
كِتَابَةُ القُرْآنِ وَجَمْعِهِ ٧٥
التَّفْسِيرُ ٨٣
الواجب على المسلم في تفسير القرآن ٨٧
المرجع في تفسير القرآن..٨٨
الاختلاف الوارد في التفسير المأثور ٩٧
تَرْجَمَةُ القُرْآنِ ١٠١

الْمُشْتَهِرُونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ الصَّحَابَةِ ١٠٦
المشْتَهِرونَ بِالتَّفْسِيرِ مِنَ التَّابِعِينَ ١١٩
الْقُرْآنُ مُحْكَمٌ وَمُتَشَابِهٌ ١٢٣
موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه ١٢٨
أنواع التشابه في القرآن ١٣٢
الحكمة في تنوّع القرآن إلى محكم ومتشابه ١٣٦
مُوهِمُ التَّعارُضِ فِي القُرْآنِ ١٣٧
القَسَمُ ١٤٢
القَصَص ١٤٥
تكرار القصص ١٤٨
الإِسْرَائِيلِياتُ ١٤٩
موقف العلماء من الإسرائيليات ١٥٣
الضَّمِيرُ ١٥٥
الإظهار في موضع الإضمار ١٦٠
ضمير الفصل ١٦٢
الالْتِفَاتُ ١٦٤
الفهرس ١٦٦

* * * *